

اتِّساع الرُّؤيةِ القلبيَّة للمعنَى القرآنيِّ

: العوامِلُ والعوائِقُ

بقلم

محمود توفيق محمد سَعد

الأستاذ (غير المتفرغ) في جامعة الأزهر الشريف

١٤٤٠ هـ = ٢٠١٨ م

مقدمة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف].

«اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (١)»

روَى البخاريُّ في كتاب (فضائل القرآن) وكتاب (الاعتصام بالكتاب) مِن صَحيحِه بسَندِهِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِىَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَىَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢)» أَمَّا بعدُ

فإنَّ الله سبحانه وتعالى من كمالِ جمالِ ربوبيَّتِهِ وفيضِ رحمانيّته ورحيميَّته أنّه كما أبان لناعنْ نفسِه وصفته في مفتتح سورة "أمّ الكتاب": ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ

(١) صحيح البخاري برقم: ٣٣٦٩، كتاب (الْجُمُعَةِ)، بَاب (بَابُ مَنْ انْتَظَرَ حَتَّى تُدْفَنَ).
(٢) صحيح البخاري برقم: ٤٩٨١، كتاب (فَضَائِلِ الْقُرْآنِ)، بَاب (كَيْفَ نَزَلَ الْوَحْيُ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ).

يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ ﴾ [سورة أم الكتاب]. فإنّه ﷻ قد أبان في مفتتح سورة "البقرة" عن مَنْزِلِ كتابِه ومكانتِه وعنْ خصَائصه ورسالتِه وعنْ مَن يكون له هدًى ومَن يكون عليْهِ عمًى، وما كان فيه من هداية إلى الصراط المستقيم، فلا يبقَى لأحد عذرٌ في أن يجهل استحقاقات القرآن عليْه، واستحقاقات نفسِه عليْه أيضًا؛ ليكونَ له من هذا الذّكرِ الحكيم النّصيبُ الأوفَرُ مِن عطاءاتِ ربّه ﷻ، فأهلُ القرآن يقولُ بعضهم لبعض: لا تنسَ نصيبك من القرآن وأحسن إلى نفسِك تدبرًا وتأدبا كما أحسن الله إليك، فجعلك من أهلِه .

وهذا ممّا يحملُ كلَّ ناصِح نفسَه ألّا يكتفِي من عطاءات القرآن ببُلْغة الرَّاكب، بل هُو المتشوّف إلى أن يتضلَّع من عطاءاتِه ليكون له عند ربه ﷻ قدمَ صدقٍ في مسيرِه ومصيرِه.

والله ﷻ في سورة" الزّمر"الّتي عمودُ الأمر فيها قوله ﷻ : ﴿...فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ...﴿٣﴾﴾ [الزُّمَر]، يأمرُ الله ﷻ رسُوله ﷺ: بقوله: ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾(الزمر :٥٣- ٥٥) [(١)].

(١) في أمر الله ﷻ لرسوله ﷺ أن يقول، أي أنه يقوّله دون أن يأتي الأمر مباشرًا منه ﷻ ـ لَفْتٌ إلى أمور منها :

قوله ﷻ :﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ عطفا على (أسلموا) وَ(أَنِيبُوا) وعلى (لَاتَقْنَطُوا) ممَّا يستثيرُ في الوعي تساؤلاً :

أفي ما أنزَل ربُّنا ﷻ إلينا حسنٌ وأحسن، ويأمرنا باتباع الأحسن؟.

ألـم يقل في السورة نفسِها قبل هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر:٢٣]

أنّ كل مأأنزله الله تعالى إنّما هو(الأحسن) في ذاتِه وصِفاتِه.

فالأحسنية المراد اتباعها ليست أحسنيةراجعةإلى ذات ما أنزلَ إلَيْنا ربّنا ﷻ، وإنما هي راحعةإلى العطاءِ الرباني المترتب على أحسنية التاهلِ للتلقّي بإحسان الاتباع المؤسَّس على (لا تَقنَطُوا)، (أَنِيبُوا)، (أسلموا) أي أنّ مناط الأحسنية من حيث عطاؤه لمن اتبع وفق مستوى الاتباع .

---

* ـ أنّ سيدنا محمد ﷺ مأمور، لا يأتي بشيْءٍ من عند نفسِه، فهوعبدٌ لله ﷻ يوحَى إليْه، فمن ردّ عَلَيْهِ شيئًا فإنما يردّه على الله ﷻ .

* ـ وأنّ ذلك المأمور به لا يحققه المرءُ إلا باتباعه ﷺ، فهوعتبة الطّريق إلى ربنا ﷻ .

وكان بالغ الحسن أن قال (قل ياعبادي) ولم يقل (قل ياعباد الله) وسماهم عباده على الرغم من أنهم أسرفوا على أنفسِهم، وهي كلمة بالغة التصوير لما وقعوا فيه. (على أنفسِهم) فكان فيها من الإعراب عن عظيم سعة رحمته ﷻ وفضله على الرَّغم من أنهم أسرفوا على أنفسِهم، وماكان لهم أن يفعلوا، بل كان عليهم أن يشفقوا عليْها، وبرغمٍ من ذلك لم يطردهم من شرف(ياعبادي)

ولم يشأ أن يقول :(يأ أيها الناس) أو(يأيها الذين آمنوا) وبمثل هذه تتسع الرؤية القلبية لرحمانية الله ﷻ ورحيميته، فلا يقتدر الشيطان أن يقطع الطريق علينا قطُّ، فإنا وإن أسرفنا على أنفسنا فنحن عباده ﷻ ، فهل لنا أن نعامل أهليناً وأحبابنا وتلاميذنا وجيراننا بمثل هذا التّحبَّب والتودّد وإن أسرفواعلى أنفسنا في إيذائنا؟ هل لنا أنْ نتخلّق معهم بأخلاق الله ﷻ معنا؟ !! .

يبين لك ذلك ما رواه الشّيخان : البخاري في كتاب "الرقاق" ومسلم من كتاب "الإيمان" من صحيحيْهما بسندِهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - عَنِ النَّبِىِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِى عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: قَالَ « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » [١].

فالارتقاء من عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ إنما هو مَرهونٌ بكيفية الفعلِ ،لا بنوعِ المفعول، فمن وجوه المعنى في قولِه ﷻ: (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) أن يحرص العبد على أن يسْعى حثيثًا على أن يكونَ له أحسن ما يكون من المثوبة من القرآن بحسن كمال الإيمان به، والتخلّقِ بهديه والدَّعوة إليه بلسان الحالِ قبل لسان المقال، فلا يكتفي بأدنى عطاء، بلْ عليْهِ أن يكونَ المتشوّفَ إلى أجل عطاءٍ وأجزله، فيتخذَ لذلك عدّته، فالشَّأن في المسلم أن يستشرف إلى معالي الأمورِ : عملاً ومثوبةً، وإلى ذلك هدَى رسُول الله ﷺ :

روَى البخاريُّ في كتاب(الجهاد) من صَحيحه بسندِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - « مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ فِى أَرْضِهِ الَّتِى وُلِدَ فِيهَا » . فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ .

---

(١) صحيح البخاري برقم : ٦٤٩١.

قَالَ « إِنَّ فِى الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ »[(١)].

تبصر قوله ﷺ:(فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ) ظاهره أنه يأمرنا أن نطلبَ بألسنتِنا – كما تفعلُ الدَّهماء- الفردوسَ الأعلى. كلاَّ، الأمرُ مرجعُه إلى الحثِّ عَلى أن نتأهّل لأنْ يُستجابَ لنا إذا ما سألنا الله ﷻ الفردوس، هو حثٌّ على التَّرقّي في مقامات الطاعة، والارتقاء منْ مقام "المراقبة"(فإنه يراك) إلى مقام المشاهدة (كأنك تراه) .أي كونوا أهلا لأن تسألوا الله ﷻ الفردوسَ الأعلى؛ فيستجيبَ لكم.

علوُّ الهِمَّة من عُمُد شخصية المسلم، لا يرضَى بما هو أدنى متى كان مقتدرًا على أن يطلبَ الأعلى من عطاءات الله ﷻ وبيان الوحي قرآنًا وسنّة يفيضُ بالحثّ على تلك السّجية الإيمانيّة . وإن كان مسلمو العصر أبعدَ ما يكونون عن التخلّق بذلك الخلق، «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ »[(٢)].(أبو داود: الزكاة [(٣)]) .

---

(١) صحيح البخاري ٢٧٩٠.

(٢) غيرقليل من طلاب العلم حين يقرأ مثل هذا البيان يتوهم أنه مقصور على قوت الأجساد، بينا قوت النفوس والعقول والقلوب والأرواح هو الأولى. ونفس المرء أول ما يجب أن يوفّي حقه رعاية وحماية.

روى مسلم في كتاب(الزكاة)منَّ صَحيحه بسنده من حديث جابر مرفوعا « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا فَإِنْ فَضَلَ شَىْءٌ فَلأَهْلِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَىْءٌ فَلِذِى قَرَابَتِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِى قَرَابَتِكَ شَىْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا ». أخرجه مسلم برقم :٩٩٧.

(٣) إسناده صحيح، أخرجه أبو داود برقم :١٦٩٢.

لهذا كان من الفريضة عند الأعيان أنْ يسْعى المرْءُ إلى امتلاك ما يُعينه على أن تتسع رؤية فؤادِه ما هو مَكنونٌ في آيات الذّكر الحكيم من معانِي الهدى، فهو الكتاب "المبارك" كما وصفه الله تعالى :

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (سورة الأنعام : ٩٢)

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (سورة الأنعام : ١٥٥)

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ (سورة الأنبياء : ٥٠)

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (سورة ص:٢٩) [١].

جاء البيانُ عن بَركته مصرَّفًا في سِياقَاتٍ عدّة ليكون ذلك حاضرًا في وعي القارئ حثًا على استجداء عطاءات والاجتهاد في التَّأهل لتلقيها، فإنَّها لا تتنزّل إلا على قلبٍ متأهّلٍ لأن ينتفع بها، وينفعَ بها ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ (سورة البقرة: ١٨٦) تأمَّل قوله ﷻ :(فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى) هدَى إلى ما يجعلهم أهلا لتلقّي فيوض عطاءاتِه المتكاثرة، فمنْ طلبها من غير هذا الطَّريق فقد ضلّ، فصاحبُ العطاءات ﷻ إنّما عيَّنَ طريق تحصيلها، وهو بذلك العليمُ الخبير.

---

(١) يحسن بطالب العلم إذا ما قرأ أوسمع وصف الله ﷻ كتابه بصفة أن يستقرئ مواطن هذه الصفة في القرآن ويبصر مساقاتها أولا، وأن يبحث عن تحققها في الكتاب، وأن يحمل من عطاءات هذه الصفة إلى فؤاده، فهو من الله ﷻ هداية إلى ما يجبُ علينا أن نتخذه من القرآن . وهذا يحمل طالب العلم على أن كون بصيرًا بالفروق الدلالية بين صفات القرآن في القرآن فهي فروق هادية إلى ما بين عطاءات القرآن من تنوع . ومثل هذا مما نقصر كثيرًا في الوفاء ببعضِ حقه علينا، وحق أنفسنا علينا، فيكون لنا من الإسراف على أنفسنا نصيبٌ.

ليس عطاء قوله(كتاب مبين) كمثله عطاء (كتاب كريم) كمثله (كتاب عزيز)، كمثله (علي حكيم).... فإنَّ لكلّ صفة عطاؤها.

وهو ﷻ حين استفتح بيانه في سورة البقرة بالإعراب عن شأن القرآن (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)(سورة البقرة: ١ – ٢) هدَى إلى ثلاثِ كليَّاتٍ :

❋ـ هدى إلى كمال هذا الكتاب وعلوِّ شأنه في ما أنزل له (ذَلِكَ الْكِتابِ) [١].

❋ـ وهدَى إلى عصمتِهِ مِن أن يكونَ فيه ما يحمل ذا عقلٍ على أن يرتابَ فيه (لا رَيْبَ فِيه) فمَن ارتاب في شيْءٍ منه فإنّما مردّ ذلك إليْه، لا إلى شيءٍ ما في ذلِكَ الكتابِ[٢].

❋ـ وَهدَى إلى أنّه يجِبُ على مَن أراد الهُدَى منه أن يتّقِي صراط المغضوبِ عليهم، وصِراط الضّالين: ويلزم صِراط الّذين أنعم عليْهم : صراط المغضوب عليهم : صراط من عَلِم الحقّ، ولم يلزم وينصر، وهو ما غلب أحبارِ يهود. وقد حذر الله ﷻ

---

(١) في أوّل ذكر لما أنزله الله ﷻ جاء الإعراب عنه بأنه (الكتاب) وفي هذا دلالة على معنى الجمع وعلى معنى الثبات، وعلى معنى الفرض والإحكام، وعلى أنّه سيبلغ أقوامًا سبيل الحفظ والتلقّي عندهم هو الكتابة، وفي هذا بشرى بأن القرآن بالغٌ كلّ مكانٍ حيثُ يبلغ الليل والنهار.

مادة"كتب" كما يقول ابن فارس في"مقاييس اللغة" : أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ..... وَمِنَ الْبَابِ الْكِتَابُ وَهُوَ الْفَرْضُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة: ١٨٣]، .." فدلنا على أن ما أنزله إلى رسوله ﷺ إنما هو جامع كل معاني الهدى، وأنه الذي يجمع من اتبعه في طريق العزة (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(سورة آل عمران١٠١) فهو الجامع معاني الهدى لن تجد منها معنى خارجه وليس فيه، وهو الجامع لمن آمن به جمعًا يعصمهم من المذلة والضلالة. وهو الذي لا يزول ولا يحول ولا يتغير، فهو ثابتٌ ، وهو الذي فرض على الأمة ليس لها أن تزيغ عنه.

استجمع باصطفاء كلمة (الكتاب) هذه المعاني في أول موضع جاء ذكره فيه. فعلينا أن نحمل هذه المعاني، وان نستقرئ المواضع التي جاء البيان فيها عنه بـ(الكتاب) والمواضع التي جاء البيان عنها بـ(القرآن) أو (الذكر) ونحو ذلك ونناظر ذلك كله ببعضه ففي هذا من العطاءات ما تتسع به الرؤية القلبية لمعاني الهدي في الذكر الحكيم.

(٢) في قوله ﷻ (لا ريب فيه) تحدّ صارم لكل ذي عقل نصيح أن يبحث عن أدنى ما يمكن أن يثير أدنى شائبة ريبٍ في قلبٍ معافًى من داء العصبية والهوى . فلو كان هذا من عند أحد من البشر لما استطاع أن يقول ذلك. ولكنه من عند الله ﷻ، فهل لمن لا يؤمنون به أن يتظاهروا، وأن يخرجوا لنا منه أدنى ما يمكن أن يثير ريبًا في قلبٍ شفيّ من الشبهة والعصبية الحمقاء.

من ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ (سورة الصّف :٢ -٣)

وصِراط الضّالين صراط من عمل على غيرِ بصيرة، عمل ولم يعلم الحقّ والخير، وهو ما غلب على رهبان صَليب [1].

وصِراط الَّذين أنعم الله عليْهم صراط من علم الحقَّ والخير، فلزم، واستمسك بالحقّ ونصَرَه، وعلم الخير واستبصَره، فصنعه ونشره في النَّاسِ كلّ النَّاس إيمانًا واحتسابًا، وهو سبيل الأنبياء والصّدّيقين والصَّالحين :﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾(سورة النساء: ٦٦ - ٧٠)﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ (سورة يوسف: ١٠٨).

فالقرآنُ لن يكونَ هدًى إلّا لِمن جعل وثيق العلمِ وصَحيحه وصَريحه سبيلاً إلى تحقيق عمل عُمُدُه صفاءُ قصدٍ ونقاءُ باعثٍ، واتباعُ شرعٍ، وفتوّةُ عزمٍ، وإتقانُ صُنع . بهذا يكونُ القرآنُ هدًى لا عمًى، فاختر لنفسِك بنفسِك.

---

(١) كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم.تأليف : ابن خالويه: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (ت : ٣٧٠هـ) مطبعة دار الكتب المصرية عام:١٣٦٠هـ، ص ٣٢، وتفسير القرآن العظيم. تأليف :أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة . نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع.ط(٢) عام: ١٤٢٠هـ - ج١/ ١٤٠ ، وما بعدها.

وهذا البيان من الله ﷻ عمَّن يكون له القرآنُ هدًى في مفتتح سورة "البقرة" المؤسَّس ما فيها من معاني الهدَى على" الإيمان القويم بالغيب" إنّما هو مِن فيض جمال الرَّبانيّة والرَّحمانيّة والرَّحيميَّة، الَّتي أعرب بها عن نفسِه في مفتتح سُورة "أمِّ الكتاب" فكان استحقاقُه كمالَ الحمدِ وسبيغه لذاتِه ولِما تفضَّل به علينا مِن جليل نعمائه، وعظِيمِ آلائه الّتي لا تُحصَى. ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (سورة الجاثية: ٣٧).

وإذا ما كان الله ﷻ قد وصف كتابَه في آيات عدَّة بأنَّه مباركٌ، ووصف الليلة الّتي أنزل فيها بأنّها مباركة ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ (سورة الدُّخان :١ - ٣) فإنّه ليس يخفَى أنّ مِن مقتضَيات "البركة " تكاثرَ العطاء وتجدُّدَه، فقد جاء ما نسب (على ضعفٍ) إلى سيدنا رسول الله ﷺ ما يهدِي إلى ذلك أنّ القرآن : « كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَركَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِى غَيْرِهِ أَضَلَّهُ الله، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِى لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلاَ تَنْقَضِى عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِى لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ) مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ». رواه التّرمذيّ في كتاب(فضائل القرآن) من جامعه بسنده عَنْ

أَبِى الْمُخْتَارِ الطَّائِىِّ عَنِ ابْنِ أَخِى الْحَارِثِ الأَعْوَرِ عَنِ الْحَارِثِ عن عليّ ﷺ، وقالَ الترمذيّ :" هَذَا حَدِيثٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ. وَفِى الْحَارِثِ مَقَالٌ." [١].

قوله:" وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلاَ تَنْقَضِى عَجَائِبُهُ" حقٌّ مبينٌ لا سبيل لذي عقلٍ أن يتوقف فيه، ذلك أنَّه واقع الحال ومشهود كلّ امرءٍ في نفسِه ونفس منْ حوله، وكذلِك لا يليقنَّ بذي عقلٍ ألاَّ يبادرَ إليْه يتضلَّع - نعمْ يتضلّع - مِمَّا فيه منْ عجائب لا تنقضِي، ولا يشبعُ منها العلماءُ، ولا تخلق على كثرة الرّدِّ. فهو المتجدّد عطاؤه بتجدّد مهارات التلقّي وأداوتها، والتَّهيُّئِ لتنزُّلها، فعطاءُ القرآن على قدر صفاء القصدِ، وفتوة العزم، وإتقان الصّنع وطهْر الوعاء (القلب) واتساعِه .

ومِن ثَمَّ كنتُ حريصًا على أن أصطحبَك في ارتحالِي إلى تبصّر العواملِ الَّتي تُعينُ القلبَ على اتّساع رؤيتِه المعنى القرآنيَّ وإلى الوَعي بعوائقِ المحاجزة عن ذلك، لعلَّنا نتعاون على الَّتي هي أمجَد وأحمَد .

---

(١) إذا ما كان هذا الأثر غير موثوقٍ في سند رفعه إلى مقام سيّدنا محمدٍ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فإنّ معناه قويم لا أرى في القرآن ما ينقضُه، فإن ذكرته فإنما ذكرته استئناسًا لا استدلالا، ففي القرآن والسنة النبوية ما يغني عن الاستدلال به، إلا أنه لما كانت دلالته على المراد أظهر وأقرب إدراكا كنت أميل إلى ذكره هنا عونا لمن لا يطيق تلقّي دلالات القرآن اللطيفة على ما دل عليْه هذا الأثر جليًا.(يحسن الرجوع إلى كتاب: "مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ" تألبف برهان الدين البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) الناشر: مكتبة المعارف، الرياض.الطبعة الأولى .عام ١٤٠٨ هـ.ج:١/ ٢٢٤.

ولا تحسبنّ أنّ الَّذي أنت قارئٌ يتجاوزُ الرَّغبة في تثوير وَعْيك لِتَنْفِرَ إلى ما هو الأعلَى، فمثلُ هذا الَّذِي أضعُه بيْن يديك لا يصلُحُ أن يكونَ زادَك، وإنْ صلُح أنْ يكونَ المُسْتَفِزَّك إلى أن تسْعَى إلى زادِك، والدّالُّ على الخيرِ كفاعلِه إنْ كان العاجزَ عنْ أن يكونَ فاعلَه، فليس حسنًا أن نستحيلَ إلى دُعاة خيرٍ ناكصين عن فعلِه ونحن قادرون، ما يكون الدَّالُّ على الخير كفاعلِه مثوبةً إذا ما كان قادرًا على أن يفعلَه، فرغبَ عن أن يدلَّ عَليْهِ بلسان حالِه واستغنى بالدَّلالةِ على الخيرِ بلسانِ مقالِه، ولن تفلحَ أمَّةٌ أخْيارُها دالُّون بلسان مقالِهم على الخيرِ دون ألسنةِ حالِهم. فإنّي قد رأيْتُ غير قليلٍ مِن شبابِ هذِه الأمَّة عمدُوا إلى دعوةِ النَّاس إلى الخيرِ بشقشَقةِ لسانِ مقالٍ، وهم القادرون على أن يكونَ لسانُ حالِهم هو الدَّالّ على الخير. فليحذر كلُّ مسلمٍ مِن تلْبيس إبليس : يوهمُك أنَّك إنْ حادثْت النَّاس بالخير، فحسْبك، ويؤذن في سمعِك : أليس الدَّال بلسان مقالِه على الخير كفاعله؟!

ليكنْ لسانُ حالِي أسبقَ دلالة، وأصدق مقالاً، وأنجعَ أثرًا من لسانِ مقالِي ،وتلك من الفرائضِ الَّتي هِي فرضُ عيْنٍ النّاس فِيها أجمعون كأسنان المشْط .

*** *** ***

قراءة في العنـوان : تثوير المصطلح.

اشتمل عنوان هذه المدرسة على عنصرين : المعنى القرآني- الرؤية القلبية، وهذا ما يحسنُ تبيين كلٍّ .

أولا: المعنى القرآنيّ :

ليس يخفَى أنّ المعنى القرآنيّ هو طَلِبَةُ أهلِ القرآن ومستطعَم أفئدتهم، وكلّ جُهدٍ يبذلونه في مدارسة القرآن إنّما مأمّه الأنفسُ ومحجُّه الأقدسُ تحصِيلُ وفيرِ منْ معانِي الهدَى وتمكيبنُها في أفئدتهم غذاءً وشِفاءً ونورًا يستضاءُ به ويسْتدفَأُ في سفرهم إلى ربِّهم .ﷻ

وإذا ما كانت تلاوة حروف صورة المعنى وكلمِها يُجزى صانعُها بكلِّ حرفٍ عشر حسناتٍ إلى ما شاء اللهُ - تعالى - منْ مضاعفةٍ، فكيف بتلاوة المعنى المكنونِ في تلك الصّورةِ وترتيله في الفؤاد والسّلوك ؟

وليْس ثَمَّ ذو حجًا مستغنٍ ببذل الجّهد في تحصِيل دقائقِ لطائفِ الأساليب تركيبًا وتصويرًا وتحبيرًا متّخًّا ذلك عملَه وزاده، فمن استغنَى بذلك فقد غَبَنَ نفسَه، وليْسِ أحمق مِمّن يَغبنها.

الاجتهادُ في استحصادِ أسرارِ الأساليب على تفنّنها وتعدّدها وتمدّدها واتّساعها إنّما هو وسيلةٌ إلى غايةٍ لا يثمكن بلوغها إلا بتحقِيقِ تلك الغاية، ومثلما لا يستقيم قطّ الاكتفاءُ بتحقيق الوسيلة عن بلوغِ الغاية، هو سبيلٌ إلى غاية تستحيل هذه الغاية نفسُها سبيلاً إلى مَحَجٍ نفيسٍ: الاعتكاف في محرابِ العبودية القانتة لله ربّ العالمين.

الغايةُ الوسْطَى لطلاب العلم بالقرآن وأهلِه إنّما هي "المعنى القرآنيّ" وتمكينه في الفؤاد وتفعيله لتخضع لهديه الأمثلِ الأكملِ حركةُ المرْءِ في استعمارِه الحياةَ كونًا وإنسانًا بتَبْيين الحقّ ونصرتِه وتبْيين الخيْر وصِناعتِهِ ونشرِه في النَّاسِ كلّ النَّاسِ استرضاءً لمن استخلفه فيها ﷻ ومن وراء تلك الغاية الوُسطى غاية أمجد وأحمد : غاية تحقيق محبة الله ﷻ العبدَ:

يقول الله ﷻ في حديثه القدسيّ : « مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ » . (البخاري : الرّقاق، برقم :٦٥٠٢).

"حتّى أحبه"هي الغايةُ العُظمَى والمثلى لطلاَّب العلم بالقرآن وأهلِهِ. والله ﷻ يقول :(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله...) (سورة آل عمران:٣١) فهو ﷻ ما جزى من يحبّ صادقًا قلبًا وفعلاً إلا بِحبّ . (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (سُورة الرّحمن :٦٠) فمحبة الله ﷻ العبد هي الطَلِبَةُ العُظمَى.، وهذا لا يتحقّق إلا بحسنِ استطعام معانِي الهدى المكنوزة في البيانِ القرآنيّ، وهذا ما يحمل إلى التّوفّر على السّعي الحثيثِ إلى تبْيين شيْءٍ منْ خصَائصِ هذا "المعنَى القرآنيّ " كيما لا يشتبه علَى المرْءِ بغيرِهِ، فيحسب أنّ الّذي في يدِه معنًى قرآنيٌّ، وما هو في الحقيقة بِه، فيكونُ كَمَن ضَلّ سعيه في درسِه، وهو يحسبُ أنّه يُحسن صنعا.

*** *** ***

مفهوم مصطلح" المعنى" :

إذا ما نظرنا في مدلول كلمة "معنى" في لسان العرب ألفينا أن مادة "عني" اليائية اللام ألفيناها تدلُّ على القصد والاهتمام والإظهار، وتدل أيضا على المقاساة والتجشّم ـ تقول العرب :عنيت كذا : قصدته وعنت القرية : أظهرت ماءها وعنت الأرض: أنبتت نبتا حسنًا وتقول :عانيت الأمر: قاسيته، وتعنَّاه: تجشمه، وعناه الأمر: أهمه.

أمّا المعنى الاصطلاحى لكلمة (معنى) فقد لقي اختلافا بالغا بيْن العلوم المختلفة ذات العلاقة باللغة، ومرد اختلافهم في تحرير المعنى الاصطلاحي لكلمة (معنى) هو اختلافهم حول وظيفة اللغة

والقصدُ هنا إلى تبيين مرادي بالمعنى القرآني، وهذا ما يُمكن بيانه بأنّه " كلُّ ما أبان الله ﷻ في كتابِه العليّ الحكيم المنزَّل على رسولِه ﷺ بلسانٍ عربيّ مبينٍ، ويدركُه ويستنبطُه الأعيانُ منْ أهلُ العلم مِن النَّصِّ القرآنيّ في سياقه القريبِ والمديد وفقًا لأصولِ الفهمِ والاستنباطِ وضوابطِهما، متجليًا فيه جلالُ الألوهيّة وجمالُ الرّبوبيّة، هاديًا مَن آمن به إلَى الارتقاء إلى مقام العبوديّة الصّفاء لله ربّ العامين ".

هذا المفهوم لمصطلح "المعنى القرآني" ذو أركانٍ وشروطِ صِحَّةٍ.

أمّا الأركانُ فتتمثَّل في قولي: " كلُّ ما أبان الله ﷻ في كتابِه العليّ الحكيم المنزَّل على رسولِه ﷺ بلسانٍ عربيّ مبينٍ، ويدركُه ويستنبطُه الأعيانُ منْ أهلُ العلم مِن النَّصِّ القرآنيّ في سياقه القريبِ والمديد وفقًا لأصولِ الفهمِ والاستنباطِ وضوابطِهما " .

هذا دالٌّ على أنّ ما يستنبطُه أهلُ العلم الأعيان من البيان القرآني وَفق منهاج الاستنباط الصَّحيح والتزامًا بضوابطه هو ما أودعه الله ـ تعالى ـ في بيانه، ذلك أنّه لو لم يكن كذلك لأقام الله رب العالمين في بيانه وسياقه ما يحاجز الأعيان من العلماء عن إدراك ذلك الّذي لا يريده[١].

وكلمة "استنباط" هادية إلى أنَّ ذلك المعنى مستخرجٌ من معدن هذا البيان، فما هو بمستسْقطٍ عليْه من نفسِ النّاظر، وما هو ممَّا يَرِدُ على الخاطر عند سماع البيان لعارضٍ بحيثُ يزول ذلك عند زوالِ العارضِ [٢].

وأمّا شَرط الصّحة فيمثلُه قولي :" متجليًا فيه جلال الألوهية وجمال الرّبوبية هاديًا مَن آمن به إلى الارتقاء إلى مقام العبودية الصّفاء لله ربّ العامين".

يتضمَّن هذا الشَّرط أمرًا يرجع إلى ذات المعنى، وأمرًا يرجع إلى وظيفته:

فالّذي يرجع إلى ذاتِ المعنَى قولي : " متجليًا فيه جلال الألوهية وجمال الرّبوبيّة".

والَّذي يرجعُ إلى وظيفته قولِي : "هاديًا مَن آمن به إلى الارتقاء إلى شرفِ مقام العبوديَّة الصّفاء لله ربّ العامين ".

كلُّ معنى لا يتّسم بهذا هو مباعَدٌ عن أن يتّسم بحلية "القرآني" قد يكون معنى لغويًّا للنّظم، ولكنّه لا يحملُ من جلال الألوهيّة وجمال الرّبوبيّة إلى القلبِ المتلقيه شيئًا. فالّذي يقرأُ قول الله تعالى: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ

---

(١) يَحسُن بكَ طَالبَ علمٍ أنْ تقرأ مستبصرًا" المقدمة التاسعة"من مقدمات "تفسير التحرير والتنوير"للطاهر بن عاشور "(١/ ٩٣-١٠٠) نشرالدار التونسية للنشر. عام:١٩٨٤م ؛ ففيها ماينفعك ويمتعك. فلا تزهد .

(٢) عظم المقولات الضالة في هذا الباب مرجعها إلى ركوب متن"الإسقاط" و"التقويل" وهما من أخطر ما يجبُ على طالب العلم أن يحذر، فإنهما من تحريف الكلم عَن مواضعه، والتقول على الله ربّ العالمين .

رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (سورة الفاتحة: ١-٤) ولا يدرك إلاّ المعنى اللغوي (النّظمي) من هذه الآيات، فما أدركه وإن كان صحيحًا في نفسِه، فما هو بالمعنى القرآنيّ الَّذي هو طَلبة العقلِ البلاغيّ من تَدبّرالبيانِ القرآنيّ، وهذا المعنى "النَّظميّ" يمكنُ لكلِّ مكينٍ في لسانِ العربية أن يدركَه، وإن كان غيرَ مؤمنٍ بِه.

وكذلك إذا لم يكن ما وقع في سمعِه وقلبِه من الآيات حمالَه إلى أن يرتقِي درجةً في مَدرجَة القربِ الأقدس. فالمعنَى القرآنيّ هدًى وذكرَى ورحمةٌ وشفاءٌ وبشرَى للمؤمنين وللمحسنين. فإذا لم يكن هذا نصيبَ قلبك ممَّا تلاه لسانُك أوْ سمعت أذنُك أو أبصرتْ عينُك، فاعلَمَنّ أنّك ما استطعمْت معنًى قرآنيًّا، بل معنى بيانيًّا. وفرقٌ وسيع شَسِيع بيْنهما.

وكلّ طالب علم بملكِه أن يدرك فرق ما هو معنى نظميٌّ ،وما هو معنى قرآنيٌّ فيما ورد على قلبِه.فعيار ذلك فيك . فلا تهملنّ استثمارَه .

*** *** ***

أنماط المعنى :

أشرتُ قبلُ إلى أنَّ الدَّلالة المعجمية لكلمة "عنَى" ذاتُ بُعديْن رئيسين : بُعْدُ القصدِ والاهتمام، وبُعْدُ الظّهورِ والتجلّي .

فالمعنى أيّ معنًى ينقَسمُ ثلاثة أنماط : معنى مقصُود، ومعنى مدلول، ومعنى مفهوم.

النّمط الأول : المعنى المقصُودُ هو ذلك المعنى الّذي يريدُ المتكلِّمُ أن يوصِّله للسَّامع، وهذا لا يُحيطُ به إلا صَاحبه، فهو يرجعُ إلى المتكلم.

وإذا ما كان المتكلمُ بالمعنى هو الله ﷻ فليس لنا أنْ نزعم أنّنا يُمكن أن نقطع بتحرير هذا المعنَى المقصود من الله ﷻ وتحقيقه مهما بالغنا في الاجتهاد، فإنَّ ما تفهمُه الأمَّة من كلامه ﷻ ليس هو عين مراده من كلامه الموحَى إلى نبيه ﷺ ذلك أنَّ القطع بأنَّ ذلك المعنى مِن هذه الآية مثلاً هو عينُ مراده ﷻ منها إنّما يكونُ بطريق توقيفيّ صحيح الإسناد إلى سيّدنا رسول الله ﷺ.

وما نقرأ أو نسمع من أهل العلم بكتابِ الله ﷻ أنّ المقصود كذا، فإنّما هو ضربٌ من التَّسامُح حمل إليْه أنّ ما يفهم مِن البيانِ وَفْق المنهجِ القويم لِلفهم، ووَفْق أداوتِه ومهارتِه، والتزامًا بضوابطِه وعواصِمِه سيكونُ مِن مراد الله ﷻ؛ لأنَّه لو لم يكن منْ مرادِه لأقامَ ﷻ في بيانه وسياقه من القرائن ما يحاجز عن فهم ما لا يريد، فإنَّ حكمتَه وعدلَه ورحمتَه من عطاءاتها أن يحمي المتدبّرين كتابَه أن يفهموا غير مراده ما دومُوا أهلا للفهم عنه ﷻ.

النّمط الثاني : المعنى المدلول: هو ذلك المعنى الَّذي تدلّ عليه الصّورة (: التّركيب) في سياقها القريب والمديد، الشَّأنُ في المعنى المدلولِ في بيان الوحي قرآنًا وسنَّة أنّه مطابقٌ للمعنى المقصود؛ فالمتكلمُ بهذا البيان مقتدرٌ على أن يكون بيانُه حاملاً كلَّ مقصودِه جليلِه ودقيقِه . فهنالك تطابقٌ كاملٌ بيْن المدلولِ بالصّورة والمقصود منها .

وبيانُ البشر الشّأن فيه أنَّه غيرُ قادرٍ على تحقيق وفاء منطوقِه بالدَّلالةِ على مقصودِه كاملاً أو غيرَ زائد عليْه. فهو بيْن نقصٍ في الدَّلالة، أو دلالته على غير مقصودٍ.

والمعنى المدلول هوالذي يبحث عنه أهلِ العلم في البيانِ فعلى قدر تفاوتهم في اختيار منهاج التفكر والتبصر والاستنباط، وأدوات تفعيل ذلك المنهج، والالتزام بالأصول والضّوابط يكون تفاوتَ عطاءاتهم وما يستحصدونه ممّا دلّ عليه البيان .

النّمط الثَّالث : المعنى المفهوم. (أو المعنى الإدراكيّ) .

ذلك هو :المعنى الذي يقع في قلب المتلقّي البيانَ مِن تبصُّره فيه وفي سياقِه، إذا ما كان ذلك المتلقّي أهلاً لأن يستقبلَ هذا البيان، وأن يُحسنَ البصرَ فيه. فلا يؤتَى البيانُ مِن قِبَلِ سوءِ تلقِّيه.

هذا المعنى المفهومُ يتنوّعُ بتنوّع المتلقِّين، وتنوِّع مهاراتهم وأعصارِهم وأحوالهم، بل إنّ المتلقّي الواحدَ ليتنوَّع المعنى المفهومُ عندَه من حالٍ إلى حالٍ لِما يخضعُ له من عواملَ متغيّرةٍ تعتريه ذاتِ أثرٍ في تلقِّيه، ولعلّ أعظمَها أثرًا حالُ قلبِه مع ربّه ﷻ « ... فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ... [1]» صحيح البخاري ٦٥٠٢ . ومن هنا تفاوت العلماء في هذا الضَّرب من المعنى .

هذا الضّربُ هو مناطُ الاعتناءِ، ووجهُ ذلك أنَّه إذا ما كان الاستنباطُ مِن النّصّ وَفْقَ الأصولِ العلميَّة للاستنباطِ منضبطًا بعواصمِه قائمًا به من هو أهلٌ لذلِك الاستنباطِ، فإنَّ ثمرةَ ذلك ممَّا يريدُ الله ﷻ من عبادِه أن يعرفُوه، وما يريدُ أن

(١) ليس من الحكمة حصر معنى الآية في نصره ﷻ الذين آمنوا على أعدائهم في القتال، بل الآية وسيعٌ عطاؤها، هو ﷻ يدافع عنهم كل ما يلحق بهم الضُّرَّ الحسيّ والمعنوي في الدنيا والآخرة ، فما عليَّ إلا أن أكون من الذين آمنوا ليدافع الله ﷻ عني ويدفع عني كل مضَرّةٍ .

يبلّغهم عنه؛ لأنَّه لو كان ذلك لا يريدُ إبلاغَه إلينا لأقامَ في بيانِه مِن القرائنِ ما يصْرفُنا عن فقهِه .ومن وجوه المعنى في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ (سُورة الحج : ٣٨) أنَّه يدفعُ عنهم الضَّلالة في فهم آياته، حماية لهم، فهو يُحبُّ استبقاءَهم في سبيلِه، فيصرفُ عنهم كل ما يُعيقُ حركتهم إليْه تزلّفًا. وإذا ما كان مِنْ شأن كلّ بليغ مِن البشر أن يقيمُ في بيانِه ما يصرف السَّامعَ عن أن يفهمَ من بيانه غيرَ ما يريدُ المتكلمُ منه، فكيف بالله ربّ العالمين الرَّحمنِ الرَّحيم الرَّؤوف بعبادِه ؟ [1].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ٧٦﴾ (سورة مريم: ٧٦)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ (سُورة محمّد: ١٧) [2].

---

(١) يقول الجاحظ في كتابه" البيان والتبيين": "كان عبد الرحمن بن إسحاق القاضي يروي عن جده إبراهيم بن سلمة، قال: سمعت أبا مسلم يقول: سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول: يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع..قال أبو عثمان (أي الجاحظ) : أما أنا فأستحسن هذا القول جدا." البيان والتبيين. تأليف أبي عثمان تحقيق: عبد السلام هارون ط: الخانجي- القاهرة .(ج:١/ ٨٦- ٨٧).

(٢) تبصّر ما رتّبه الله تعالى على ما كان من اهتدائهم ، رتّب عليه أمرين:

زادهم هدًى، وفي إسناد الفعل إليْه، وتنكير مفعول الفعل، ما يفتح أفق الرُّؤية لما يكون لهم منه ﷻ، ثم تبصر.

الثانية: آتاهم تقواهم، مصطفيًا الفعل آتى بكل ما فيه من دلالة على كريم العطاء ويسر تحصِيله، وإسناد الفعل إليه ﷻ ثم إضافة التقوى إليهم (تقواهم) وفيه معنى وقايتهم أي آتاهم ما يقيهم من كل سوءٍ ومن أن ترد رغبتهم، ومن أن يخيبُ رجاؤهم، ومن أن ... ومن أن....

وقد جاء عن أهل العلم بالبيانِ أنّ مِن حظِّ البلاغة ألَّا يؤتَى السَّامع من قِبَلِ المتكلم، فحقُّ السَّامعِ أن يقيمَ المتكلمُ المنائرَعلى الطَّريق، وأنْ يضعَ القرائنَ المُعِينَة على فِقهِ المُراد الصَّارفة عمَّا لا يُريد. ألم يجعل سيدُنا رسول الله ﷺ إماطة الأذَى عن الطَّريق صدقةً (متَّفقٌ عليه) فالطّريقُ إلى حُسن الفِهم أحقّ بأن يُماط عنه الأذَى(١) .

خصائص المعنى القرآني :

تدور مادة (خ.ص.ص) على الإفرادِ والتّميز، يقال : خَصَّهُ بِالشَّيْءِ يخُصّه خَصّاً وخُصوصاً وخَصُوصِيّةً، وخُصُوصِيَّةً، وَالْفَتْحُ أَفصح، وخِصِّيصَى وخصّصَه واخْتصّه: أَفْرَدَه بِهِ دُونَ غَيْرِه." (٢).وأصلُ الفعل يعدى بـ"الباء"ولا يتعدّى بنفسِه.

والخصائص مفردُها خصيصة، وهي ما يكون للشيْءِ، ولا يكون لغيره سواء كان ذلك متعلقًا بجنس ذلك الشّيءِ أو صِفته الذّاتية أو مقدارِه ونحو ذلك، فقد يكون الشّيْءِ قائمًا بذاتِه في أشياءَ كثيرةٍ إلاّ أنّه على صفةٍ ما لا تكون إلا في شيْءٍ واحدٍ، أو على مقدارٍ ما، فيعدّ هذا خصيصته من تلك الجهةِ.

---

(١) كثيرًا ما استشعر وأنا أقرأ في البيان النّبويّ ما يتعلقُ بأحاسن الأخلاق في المعاملة، وفي التماسك المجتمعي ما يصلُح أن يكونَ أساسًا لأصولِ حسنِ الإفهام والفهم للبيان البليغ .

لو أنا استجمعنا هذه الأحاديث، ونثرنا مكنونَها وكشفنا علاقتها بعالم البيان ونسقناها في منظومة علمية لكان لنا ما يؤصّل لكثيرٍ من الرُّؤَى البلاغيّة والنّقديّة في الفهم والإفهام، ولتبيَّن لنا أنّ العقلَ البلاغيَّ والنقديّ العربي لم يكن بحاجة إلى أن يقتاتَ فتات موائدِ الأعاجمِ في هذا البابِ مِن العلم والمعرفة والثقافة إن رغبنا فِي أن نطعم من عملٍ يدنا إدخالاً للمسرة على رسول الله ﷺ قبلَ كلّ شيْءٍ، فنعمّا هِي.

(٢) لسان العرب.تأليف ابن منظور. مادة(خ.ص.ص).

وقد كان كتاب "الخصائصِ "لابن جني ذا اعتناء ببيان ما تفرّد به لسان العرب من صناعة الكلمة وتشكيلها، ودلالتها على معانيها، وما بينها وبين معناها من مصاقبة، ونحو ذلك من الخصائص النّظميّة والتّركيبيّة والدّلالية للكلام بلسان العربية على سبيل التّفرّد أو التميّزِ حضُورًا ووفرةً .(1).

من هنا يُمكنك أن ترصد كثيرًا ممّا لا يُحاط به من خصائص المعنى القرآني، بل إنَّك لتجِد كلّ سِمةٍ مِن سماتِ المَعنى القرآنيّ المتجلّية في صورتِه المتلوّةِ هِي مِن خصَائصِه؛ لأنَّك لن تجدَ هذه السّمة على كمالِها في أيّ بيانٍ ولو كان بيانَ النّبيّ ﷺ فمن وجُوه إعجازِ القرآنِ الكريم أنّه لا يُحاطُ بمعانيه، ولا يُحاطُ بخصائصِ معنًى واحدٍ من تلك المعاني .

وإذا ما كان الله ﷻ يقول عن نفسِه :﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ (سُورة الأنعام :١٠٢، ١٠٣) مقررًا أنّ الأبصارَ لا

---

(١) أذهب إلى أن كتاب" الخصَائصِ" لابن جني وإن كان ظاهره أنه حديثٌ في خصائص اللسان العربيّ فإنه في حقيقته عندي كتاب في خصائص الإنسان العربي، ذلك أن العربيّ القح مجلي مقوماتِ شخصيته العربية ومميزاتها إنما هو لسانه، وما بين أصوات الكلمة، وما بين الكلم في الجملة،وما بين الجمل من علاقات تفاعل وتعاونٍ لتحقيق المراد هو هوما تقوم عليْه حياة العربيّ يوم أن كان عربيّ العقلِ والهمّ والخلق واللسان. وأنت بملك كأن تقرأ الإنسان العربي في كتاب"الخصائص".

وكأن أعداء العروبة والإسلام أدركوا ذلك، فصوبوا سهامهم إلى اللسان العربيّ، فنفروا منه أهله، وحملوهم على أن يتفاخروا بالجهلِ به، والعلم بغيرِه من الألسنة الأعجمية، ورأينا غيرقليل من أساتذة العربية في جامعاتنا يقحمون الكلم الأعجمي في كلامهم دونما مقتضٍ إلا الاستخذاء النفسيّ الآخذ بخناقهم .

تدركُه، ولا تُحيط به علمًا، فإنَّ الأمرَ كمثله القرآنُ كلمةُ الله، لا تحيط بمعان الهدى المكنوز فيه بصائرُ العالمين علمًا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ (سُورة الشّورى:١١) أيْ ليس كمثل ذاته وأوصافه وأفعاله، والقرآنُ الكريمُ من صِفاتِه، فَمَعانيه ليس كمثلها معانٍ، فهي ذاتُ اختصاصٍ لا قِبلَ لأيّ معنى أن يحوزَ ما حازه المعنى القرآنيُّ من الخصَائصِ، والوفاءُ ببعضِ حقّه فِي ذلك مدارسة فقهًا وفهمًا وتأدبًا من رسَالة العقل البلاغيّ العربيّ.

الخصِيصّة الأولى :

المعنى القرآني إلهيُّ المصدر آدميّ الغاية.

هذه الخاصيّة تكادُ تكون فسطاطَ الخصائص كلّها، فهي"أمُّ القُرى" فما مِن خصيصَة من خصائص المعنى القرآني إلاّ وهي ذات نسبٍ وثيق بإلهية مصدر ذلك المعنى، وآدمية غاية الإبانة عنه إبانة معجزة في نفسِها وفي جميع أمرها.

ومعنى إلهية المصدر أنَّ هذا المعنى لا يُمكن لغير الله ﷻ أن يقولَه، ولذا لم يكن المعنى القرآنيّ مناط التحدّي، بل هو مناط الإعجاز، وفرق بين " التّحدِّي" والإعجاز" فقد يكون الشَّيْءُ في نفسِه معجزًا لا يطيقُه غير صَاحبه، وبرغم من ذلك لم يتحدّ بِه، لأنَّه ليس مِن جنس ما برعَ فيه من يُتحدَى، إذ منطق العدل والحكمةِ والرَّحمةِ معًا قاضٍ بأنْ يكون ما يتحدّى فيه من جنس ما برع فيه منْ يُتحدى، فأنّى لعاقل أن يتحدّى قعيدًا أن يسابقه على رجليه إلى شيءٍ ما.؟ لا يكون.

كذلك لم يقع التّحدّي بالمعنى القرآنيّ في أيّ طور من أطوار التّحدي : بالقرآن كلّه، بسورة مثلِه، بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، بسورةٍ منه.

لم يكن قطُّ المعنى الإلهي داخلا في التَّحدي على أنَّ المعنى الإلهيّ في نفسِه معجزٌ، بلْ هو معدنِ الإعجازِ ومنجمِه فمظاهر الإعجاز البلاغيّ للقرآن إنّما استوجبها المعنى الإلهيّ [1].

ولذا لا يمكن لأيِّ معنى غيرِه أن يستوجبها ذلك أن المعنى هو المقتضِي منهاج الإبانة وخصائصها، فكما أنّ المعنى في القرآن تفرَّد به الله ﷻ، فإنَّ صورة هذا المعنى، ومنهج الإبانة عنه، ومنهج إفهامه العباد ممَّا تفرَّد به القرآن [2].

وكلَّ ما هو مِن الله ﷻ سواءٌ ما كان من عالم الخلق أو منْ عالم الأمر إنّما هو معجِزٌ في نفسِه، ولذا فإنّي أذهبُ إلى أنّ : صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، هِي في ذاتِها معجزةٌ إلا أنّ الله ﷻ لم يتحدّ بأيٍّ منها القوم الّذين نزلتْ فيهم، فهو ﷻ لَمْ يَجعلْ تلك الكتب آية على نبوّة منْ أنزلتْ عليْهم، فيتحدى الله ﷻ بأن يؤتى بشيْءٍ مثلها، وإنما جعل للأنبِياء غير رسول الله ﷺ آيات غير الوحي إليهم [3]ذلك أنَّ الأقوام قبل الرّسالة المحمديّة لم يكونوا أهل بيان. بل كانوا بارعين في أمور أخر وقع تحديهم فيها [1].

---

(١) حسن أن نكون على ذكر من أن علة الإعجاز إنما هي أن القرآن كلمةُ الله تعالى التي جعلها آية نبوة رسوله سيدنا محمد ﷺ، فتحداهم بها، وأن معدن الإعجاز ومكنزه ومنجمه إنما هو المعنى، وأن مجلَى الإعجاز ومشهده ومرآته إنّما هو صورة المعنى ونظم البيان، وأنّ مدرك الإعجاز إنما هو الذوق الرشيد، وأن العلم الوثيق إنّما هو معينٌ للذوق على فحولته وبصرِه بالأسباب والآثار.

(٢) ينظر كتاب (مفتاح الباب المقفل لأبي الحسن الحرالي) ضمن كتاب(تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير جمع وتحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي. نشر: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط.ط(١) عام ١٤١٨هـ ص: ٢٩، ٣٠).

(٣) روى الشيخان البخاري في كتاب"فضائل القرآن"و" الاغتصام بالكتاب" ومسلم في كتاب (الإيمان) من صَحيحيهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ :« مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِىٌّ إِلاَّ أُعْطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ – أَوْ آمَنَ – عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَىَّ، فَأَرْجُو أَنِّى أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

إلهيّة المعنى تعني أنَّ هذا المعنى متضمِّنٌ كلَّ معالم الصّفات الحسنى لله ﷻ، وأن لك فيه نصيبًا من العرفان بكلّ صِفة من الصفات الحُسْنَى ,وأنَّ هذا المعنى لا يتناهى عطاؤه لمنْ هو أهلٌ لأن يتلقاه، وأنّ هذا المعنى صالحٌ في كلِّ زمان ومكانٍ، ومصلِحٌ كلّ زمان ومكانٍ وإنسان، فمن ابتغَى الهُدَى في غيرِه ومن غيرِه أضلّه الله ﷻ . لأنَّه طلب الشّيءَ من غيرِ معدِنه ومنجمِه، وبغير سبيلِه .

النّصّ على إلهية المعنى يقيمُ في فؤاد المتلقّي أنّ كلَّ ما هو متشوفٌ إليْه مِن ضروبِ الهُدَى هو واجدٌ في المعنى القرآنِيّ فوق ما يخطر على قلبِه، فحال المتلقّي المتأهّل مَع المعنى القرآنيّ كحال أهلِ الفردوسِ يوم القيامة، لهم فيه ما لا يخطر على بالهم. فما عليك إلا أنْ تكونَ أهلًا للتلقّي، وأنت الواجدُ فوق ما تريدُ وفوق ما يمكنك أن ترجو، لذلك جعلتُ صدر الخصائص "إلهيّة المعنى".

دَلَّ هذا على أنَّ آيات الأنبياء غيره ﷺ ليست ما أوحي إليْهم، بينا آية نبوته ﷺ هي الوحي، وذلك لديموميّة رسالة، ففارقت آيته ﷺ آيات سائر الأنبياء.

(١) أعلمُ أنّ الأستاذ الأكبر محمود شاكر قال:" لا أظن أن قائلاً يستطيع أن يقول إن التوراة والإنجيل والزبور كتب معجزة، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن، من أجل أنّها كتب منزلة من عند الله"(مداخل إعجاز القرآن: ص ١٥٤، وتقديمه الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي: ص ٢٥)

وأعلم أن هنالك من الأعيان من سبقه بذلك . إلا أنّي ذاهب إلى ماذكرت لك، فهو قال:" بالمعنى المعروف في شأن إعجازالقرآن " أي أنّها معجزةٌ يتحدّى بها من أنّها آية نبوّة، فلا، وهذا حقٌّ مبينٌ أقول به، والذي أنا عليه أنها معجزةٌ في ذاتِها وليست بآية النّبوة المتحدّى بها.

ولا أحسبُ أن هنالك من يذهبُ إلى أنّه يمكن أن يتأتى لأحد من العالمين أن يأتي بشيءٍ من مثل التوارة والإنجيل اللذين نزل بهما جبريل ﷺ، ، فهما معجزان لأنهما من كلام الله وكلام الله تعالى صفته وصفته ليس كمثلها شيءٌ .

وآدميّة الغاية تعنِي أنَّ مقاصدَ هذه المعاني الإلهيّة علَى تعدّدها الّذي لا يُحصَى وتنوُّعها الّذي لا يحاطُ بِه إنّما جاءت لِصالح بني آدم عليه السلام، ففيها ما يُبِين لهم عن مراد ربّهم سبحانه وتعالى منهم اعتقادًا وفعلاً وتركًا، وفيها البيان عن أصول علاقة بني آدم بالحياة، وما خلقوا من أجله، فالله سبحانه وتعالى في أوَّل موضعٍ ذكر فيه أمرُ خلق آدمَ عليه السلام أبان عن رسالته ومحلّ تحقيقها، قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ (سورة البقرة: ٣٠) [١].

ولم يَرِدْ هذا النَّبأ بهذا النّظم في غير هذا الموضع، وهو نبأ يُعيّن حال هذا الكائن الخليفة، ومحلّ رسالته، ولذا لم يقل : إنّي جاعلٌ من الأرض خليفةً، بل (في الأرضِ) وكأنّ في تسميته عليه السلام باسم (آدم) إعلامًا للملائكة بأنّه ليس كمثل ما ظنّت المَلائكة أن سيكونَ في الأرضِ مفسدًا .إنّه (آدم) من الأدْم أي الإصلاح، فهو المُصلح لا المفسِد، في الأرض ،وليس السافك للدّماء كما قالت الملائكة .

ولعل هذا يقوّى من أوَّل قوله : "خليفة " بأنّه خليفة الله سبحانه وتَعالى في إنفاذ أحكام شرعه، كما هو شأن الأنبياء، فيكون هذا خاصًّا به وبمن هم الأنبياء

(١) ثم قراءة لزيد بن عليّ (إني جاعلٌ في الأرض خليقة) بالقاف (المثناة الفوقية . اخت الفاء) وهذه قراءة تفسير لا قراءة ترتيل يصلّى بِها؛ لأنها غير متواترة.

ويحسن أن ينتدب طالب علم ماجد في باب القراءات نفسَه إلى أن يستقرئ لنا ما هو من قبيل " القراءات التفسيرية" التي وردت عن الأعيان من الصحابة والتابعين،وأن يؤصلها ويوثقها،ويصنفها، ففي هذا زادٌ لنا في سعينا إلى حسن فهم المعنى القرآنيّ .

عَليهم الصّلاة والسّلام أو العلماء الرَّبانيُّون والحاكمون العادلون ﷺ من ذريته، فهم الخلفاءُ عن الله ﷻ في الحكم بشرع الله تعالى (العلماء ورثة الأنبياء) [١] .

ويحتمل أن يكون قوله (خليفة) بمعنى يخلف بعضه بعضا فهو مخلوقٌ متناسلٌ ذو ذرية يخلف بعضها بعضًا، وذلك لا يكون إلاّ إذا كانت هنالك رسالة متجددة متطوّرة، تقتضي أن يكون لكلّ طورٍ جيل يخلف ما قبله [٢].

كلّ ما في القرآن من معاني الهدَى القصد الرئيسُ به إلى إصلاح العباد، وإرشادهم إلى تحقيق الاستفادة من نعمة تسخيرالله ﷻ لهم ما في السّموات وما في الأرض جميعًا منه لِيتمكَّنُوا مِن الوفاءِ بما خُلِقوا له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ (سورة الذَّاريات: ٥٦) والمجال الأوسع لعبادته ﷻ استعمار الحياة كونًا وإنسانًا وفق مراده الشَّرعيّ، وفي هذا إقرارٌ منهم له ﷻ بالعبودية طوعًا، كما هم مقرّون بها قهرًا، فـ"اللام" في (ليعبدون) دالة على الإرادة الشّرعية لا الإرادة القدريّة الكونيّة. وإلاّ لَما تخلَّف أحدٌ مِن العالمين عَن عبادتِه.

آدمية الغاية للمعنى القرآني تهدِي إلى أنَّ مَن أراد الحقّ، والخيرَ في كلِّ شيْءٍ من شأن الإنسانِ وحاله وشأنِ الحياة جمعاء، فإنَّ المعنى القرآنيّ متضمّنٌ ذلك،

---

(١) صحيح ابن حبان ٨٨.

(٢) في قوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرضِ خليفة) ما يهدِي إلى أن من سيجعله الله تعالى فيها لن يكون منه إفساد في الأرض وسفك للدماء كما توجست الملائكة، لأنه لو كان منه ذلك، فلن تكون خلائف، فتحقيق الخلائف آية على استمرارية الحياة في الأرض حتى يقضي الله أمرًا، فهذه الاستمرارية لا تتحقق مع الإفساد وسفك الدماء. فكان في قوله تعالى (خليفة) وتسميته له بـ(آدم) أي(المصلح) ما يهدِي إلى مباعدة ماتوجست منه الملائكة.

فمن ابتغَى الهُدى في غيرِه أضله الله ﷻ جزاء له على اختياره غير سبيل الله ﷻ :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾ (سورة البقرة: ١٠).

محصل القول أنّ استحضار هذه الخاصية في استنباط المعنى يجعل المستنبطَ مراقبًا تحقق هذه الخصيصة فيما تلقاه قلبه من البيان الّذي هو قائمٌ لتدبره، ويجعله حريصًا على أن يضعَ يده على ما يحقّق له آدميّته أي ينقلُه من طورالإنسانية إلى الآدمية، والفرق بين الطَّورين جدٌّ عظيمٍ يدركُه مَن يرقب مواقع الكلمتين في البيان القرآنيّ[1].

*** *** ***

الخصيصة الثانية:

حليته جلال الألوهية وجمال الرّبوبية.

ما مِن معنى من معاني القرآن إلا وهو قائمٌ فيه فيه جلالُ الألوهية وجمالُ الرّبوبية، سواءٌ كان معنى مجلاه ومشهده "جملة" أوْ "آية" وما فوق ذلك ... إلى السّورة

هذان : الجلالُ والجمالُ حاضران معًا حضورًا كاملا سابغًا، قد يتفاوتان ظهورًا، ولا يتفاوتان بتة حضورًا.

(١) لم ترد كلمة "إنسان" في القرآن إلا في سياق مذمةٍ وانتقاص تصريحًا أوتلويحا، بينا جاءت كلمة "بني آدم" في سياقات تكريم أوحث على ما فيه تكريمٌ .

المعنى القرآنِيُّ في أيّ سُورة من سورِه بل في أيّ آيةٍ من آياتِه قائمٌ مِن أمرين رئيسين لا يفترقان أبدًا .ولا تجدُ معنى قُرآنيًّا لأيِّ آيَةٍ إلاَّ وهذان قائمان فيه أوْ قُلْ هو قائمٌ منهما .

لا يستقيمُ البَتَّةُ أن يَستنبط ناظرٌ في آية مِن آياتِ القرآنِ الكريم - لا أستثني - إلاّ وما يستنبطُه مِن المعني قائمٌ من هذين، فهما عمادُ كلّ معنًى قرآنيّ، وإلَّا كان هذا غيرَ جديرٍ البَتَّةَ بأن يُوصفَ بأنّه قُرآنيٌّ.

آيةٌ قُرآنيّة أيّ مَعنًى فِي القُرآن أن يقُومَ من هذين الأمرين:

الأوّلُ : **جلالُ الألوهيّة**.

والآخر: **جَمالُ الرّبوبيّة** .

فالأول :جلالُ الألوهيّة يقُيمُ المتلقّيَ فِي مقام العُبودية الرّاهبة المُخبتة القانتة الخاشية.

وهذا المقامُ قد اتّسع في كتابِ الله ﷻ الحديثُ عنه والإغراءُ بِه، والثَّناءُ على السَّاعين إليه والقائمين فيه

وهذا المقامُ جديرٌ بالعبد أن يقدّمه وأن يُعليه على مقامِ الرَّجاء في مسيرِه؛ لأنَّه ممَّا يُعينُه على التَّحاجزِ عن كلّ ما لا يُرضِي الله ﷻ، وذلك التحاجزُ هو رأسُ ما يجبُ أن يُحقّقه العبدُ.

تحقِيقُ هذا التَّحاجزِ أشدُّ على النَّفسِ، ولا تصبرُ عليْه إلا نفسٌ فتيّة تعشقُ التحدّي. فهُو أحوجُ إلى حسنِ الدُّربَةِ، وحُسنِ المُصابَرةِ والمُثابرةِ والتَّواصِي بِه.

الخصِيصة الأولى تملأ القلبَ مهابة ورهَبًا في مقامِه بيْن يدي الله ﷻ وعطاء هذا ذو أثرٍ بالغٍ في حياة المسلم ووجود الأمَّةِ كلِّها؛ لأنَّ حضُورَ جلالِ الألوهيّة في القلوب وظهورِه عليه يُحاجزُه عن أن ينشغلَ بغير ما يُرضِيه، ويحاجزُ الجوارح

عن أن يصدرَ عنها ما لا يُرضِيه، فيسلمُ المرْءُ ومَن حولَه مِن كلِّ ما يُبِيرُ أوْ يُضِيرُ، فيتحقق للأمَّة سلامُها الاجتماعيُّ، فتتفرغُ لتعميرِ الحياة بطاعةِ الله ﷻ.

وشجرةُ الطَّاعةِ وارِفةُ الظِّلالِ، تتَّسعُ لكلّ الخلائقِ، ووافرةُ الثّمارِ تشبعُ كلَّ الخلائقِ.

يقُول سُبْحَانَهُ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الأعراف: ٩٦

والآخر: جمالُ الرُّبوبيّة :

وهذا يُقيمُ العبدَ في مقامِ الرّجاءِ واليقينِ بواسِع مَغفرتِهِ ورَحمتِه، وهذا مَا يَلفِتُنا إليه الله ﷻ حين عرفنا به في فاتحة سُورة (أم الكتاب) استفتحه بقولِه ﷻ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

يَتجلّى لك الجمالُ والجلالُ في هذه (الباءِ) التي يُحرّك بها اللسانُ أوّل ما ينطقُ من آياتِ الله ﷻ وأوّل ما يتحرك لها الجنان أول ما يتحرك متدبرًا متلقّيًا عطاءات الله عزّ وجلّ معلنًا كمالَ الجلالِ والجمالِ : الجلالُ في أنّه ﷻ هُو المُستحقُّ وحدَه أن يبتدأ العبدُ أمرَه بذكر اسمه ﷻ، فلو كان ثَم إلهٌ غيرُه لشاركه في هذا الاستحقاقِ وهذا التَّفرُّدُ بالاستحقاق يفقهه القلبُ المعافَى من تعلق (الباء) وما دخلت عليه بفعلٍ محذوف يستعلِي المقام تقديرَه متأخرًا، فيدلّ هذا التقديم للمتعلِق(بسم الله) على المتعلَّقِ به أنَّ هنا اختصاصًا كما تهدي إليه قواعدُ العربيّة، والقرآن إنّما يفهم وفق سُنَّة العربيةِ ونحوها ونهجها في الفهمِ والإفهام فمَن لَم يُحسن أمرها فِي هذا، فلن يتأتّى له البتة أن يفهم عن اللهِ ﷻ.

ومِنْ حقِّ البيان أن يفقه على الوجه الذي هو أعلى عطاء مما هو معهود العربية في الإفهام، فإذا ما كان سيدنا عليّ ﷺ قد هدَى إلى حق بيان النّبوّة علينا بقوله: " إِذَا حُدِّثْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْدَى وَالَّذِى هُوَ أَهْيَا وَالَّذِى هُوَ أَتْقَى" . فإن البيان القرآني أولَى، ولذا كان الذّهاب إلى القول بأن المتعلَّق متأخرٌ؛ لأنّه الأعلى عطاءً .

في هذا الاختصاصِ جلالُ الألوهيّة مِن وجهٍ وجمالُ الرُّبوبيّةِ مِن آخرَ.

مِن جمالِها أن لم يجعلنا عبيدًا لغيرِه، ولَم يتَّخذ ولدًا، ولمْ يَكن لَه شريكٌ في المُلك.

وَمن جلالِها أنّ العبدُ مفتقرٌ إليْه لا سبيلَ له أن يستعين بغيرِه، فإنَّ ضلّ وفعل خسِر خسرًانًا مبينًا

ثُم يتجلّى لنا فيضُ الجمالُ من اصطفاء اسمِه "الرَّحمَن" واسمِه "الرَّحيم" مِن بين سائرِ أسمائِه الحُسنَى، ففِي هذا الاصطفاءِ استهلالٌ بفيضِ الجَمالِ، فالله ﷻ يتلقانا أوّل ما يتلقانا بجمالِ رُبوبيَّته برحمانيَّته وبِرحيميَّته، ثُمَّ يأتيك إنباؤه بأنَّ له الحمدُ لِذاتِه العَلِيّةِ، وإذا ما سمع القلبُ المُعافَى من داءِ الغفلة والهَوَى معنى الحمدِ أيقينَ أنَّ ههنا فيضَ عطاءٍ وإكرامٍ، ففي قوله تعالى(الْحَمْدُ لِلَّهِ) من الجلال والجمال ما يملأ القلبَ، وإن كان الجمالُ أظهرَ حضورًا وأقربَ من الجلال في القلبِ بمجرد سماعه هذه الجملة القرآنيّة، فإذا توافَدَ عليه البيانُ (ربّ العالمين) علم أنَّ هذا الفيضَ مِن العطاءِ إنَّما هو تربيةٌ له وتنميةٌ، وهي تربيةٌ وسيعةٌ لا يُحاطُ بها، تربيةٌ تسعُ العالمين أجمعين، وهنا يطمئنُّ القلبُ المُعافَى إلى وافرِ عطاءاتِ ربّه ﷻ .

وكلُّ ذلك مِن فيضِ جمالِ الرُّبوبيّة، ويأتيك مكرَّرًا اصطفاءُ اسمه "الرّحمن" واسمِه "الرَّحيم"، فيتقرَّرُ معنَى هذين الاسمين في القلبِ، فإذا هو معنًى مركزيّ حاضرٌ يسيطرُ على منهجِ هذا القلبِ في حركةِ حياتِه يجعلُ الرَّحمةَ العامَّة والرَّحمَة الخاصّةَ أساسَ حركتِه، فلا يُقدِمُ على أمرٍ إلا مِن باعثِ الرَّحمةِ حتّى وهُو يُعاقبُ من تَجِبُ عقوبتُهُ إنّما ينبعثُ من فيضِ رحمته به، أو رحمته بِمن يَستحقُّ أن يُرحمَ بعقابِ من يستحقّ العُقُوبة.

روى التّرمذيّ في كتاب" الدّيات" من جامعه بسنده عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ ». صحيح الترمذي ١٤٠٩.

وهنا يفهمُ القلبُ المُعافى وجهًا مِن وُجوه معنَى قول الله ﷻ :﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ سورة الأنبياء :١٠٧) في صحبة قَولِه ﷻ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾ [التحريم:٩]

ويفهمُ وجهًا من وجوه معنى قولِ النبيّ ﷺ: " إنّما أنا رَحمةٌ مهداةٌ"(سنن الدّارميّ :المقدمة) إنّه حقًا لرحمةٌ أُهديتْ إلى الإنسانيّة جمعاء في جميع أمره ﷺ حتّى وهو يقاتلُ من يأبَى أن يُبَلِّغ الإسلامُ للعباد، ولا يكتفِي بأن يبقَى هو على دينِه الباطلِ، بل يمنعُ الآخرين من أن يكونوا مُسلمين، فمثلُ هذا يقاتلُ رحمةً بالآخرين .

يقول ابن تيميّة:" على الإنسان أن يكون مقصوده نفع الخلق والإحسان إليهم، وهذا هو الرحمة التي بعث الله بها محمدا ﷺ في قوله ﷻ (وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ) لكن للاحتياط إلى دفع الظلم شرعت العقوبات، وعلى المقيم

لها أن يقصد بها النّفع والإحسان، كما يقصد الوالد بعقوبة الولد والطبيب بدواء المريض، فلم يأمر الشرع إلا بما هو نفع للعباد، وعلى المؤمن أن يقصد ذلك "(١).

مِن الَّذي مضَى يتبيّن لك أنَّ الله ﷻ استفتحَ تعريفنا بِه بإظهار جمال ربوبيّته، وختمه بإظهار جلالِ ألوهيتِه (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وتبيّن لك أنَّ المَعنَى القرآنيّ في أيِّ سُورة يجمع بين خصيصتيه الرَّئيستين: الأولى جلالُ الإلوهيّة، والأخرَى جمالُ الرّبوبيّةِ.

وإذا ما نظرنا في المعنَى القائمِ فِي سورة (المسد) ألفينا حضور الجلالِ والجمال فيه حضُورًا يتسم بأمرٍ مهمٍ:

جلالُ الألوهيّة في معناها أظهرُ للقلبِ، وأسرعُ وصولاً إليه، كما لا يَخفَي عليك.

وجمالَ الرُّبوبيَّة في معناها وإن كان ذا خفاءٍ فإنّه ليتجلَّى للقلبِ البصيرِ :

جمالُ الرُّبوبيّة في معني هذه السّورة لازمٌ من لوازمِ جلالِ الألوهية فيها، فإن تبّ أبي لهب وهلاك محرضته هو في حقيقته بشرَى لكلِّ صاحب دعوةٍ حقٍّ. فمن ربوبيّة أهلِ الحقِّ والدّعاةِ إليه بلسان الحال من قبلِ لسانِ المقال أن يهلِك أعداءُ الحقِ، وتبيدَ قوتهم، وأن يريهم الله ﷻ ذلك رأي العين .

ذلك أنَّ هذا يمنحهم فتوةً في الدّعوة والتَّمسّك بالحقّ، فرؤية النّصر من عواملِ الثباتِ على الحقِّ، والله ﷻ لا يدع المجاهدين بالحقِّ للحقِّ دون أن يذيقهم لذَّة ذلك ويُريهم ثمرة فعلِهم في أنفسِهم أولاً، ورأسُ ذلِك الشّعور بمعيّة الله ﷻ، واستشعار العبدِ أنّ أول ثمارِ الإقبالِ أنَّ الله تعالى رضيه لأن يقُوم

(١) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام. تأليف : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ) جمعه ورتبه : محمد بن عبد الرحمن بن قاسم (ت : ١٤٢١هـ) ط(١) عام: ١٤١٨ هـ.ج:٥/ ١٠٤.

بدعوتِه، فأيُّ جمالٍ أعظمُ من أن تشعرَ بِنعمة اختيارِ اللهِ ﷻ لك لتتولَّى الدَّعوة إليه، ويشرحَ صدرَك إليْه . فسورةُ (المسد) حين نزلتْ وكان حالُ الدّعوة فِي سِياق المناهضةِ وقد حملت معنًى يعلُوه جلالُ الألوهِيّة وسُلطانها، استشعرَتْ قلوبهم التي أشرقَ فيها الإيمان أن أعداءهم إلى زوالٍ، وأنَّ الإسلامَ ماضٍ في الأرض جميعِها، ذلك أنَّ هلاك رأس العناد ومن أغرته بِه آيةٌ بينةٌ على أنّ كل من كان على نهجِه ونهجُها له التَّبّ والخُسران.

وهذا هو عينُ البُشرَى بالنَّصر، ومن ثَم جاءت هذه السُّورة في نسقِ التّلاوةِ بعد سُورةِ النَّصرِ والفتح.

ومِن البيّن الّذي لا يَخفَى على طالبِ علم بكتابِ الله ـ عزّ وجلّ ـ أنّ السُّورة الآتية عقبَ سُورةٍ أخرَى إنّما تضيفُ إلي معناها من جنسهِ، وتؤكده أيضًا، فهي تحمل أمرين:

توكيد المعنَى السّابق . وتأسيسُ معنًى آخر يضِيفُ إليه .

فسُورةُ (المسد) تؤكّد معنى سورةِ النّصر والفتح، وهذا من بحر جمالِ الرُّبوبيّة، وتؤسّسُ لِنعمة هلاكِ أهلِ العناد وأعوانهم . وهذا من بحر جلالِ الألوهيّة. وهذه الحقيقةُ باقية ما بقيتِ الحياة، فعلَى أهل الحقِّ والدُّعاةِ إليه أن يُقيموها في قلوبهم نورًا يَهدِي وعزمًا فتيًّا يحقّقُ الغَاياتِ وإن شَطّت .

وانظر في سورة (الكوثر) كيف استهلها بإظهار جمال الرّبوبيّة (إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ) وختمها بإظهار جلالِ الألوهية (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ) فانظر تجلية صدر سورة الكوثر جمال ربوبيّة في سورة (النّصر) وتجلِية ختم سورة

(الكوثر) جلالَ الألوهية في سورة (المسد) كل ذلك في رأس المعنى القرآني المديد (ختام القرآن) وانظر كيف اعتلق المعنى القرآني في سورة (المسد) بقوله تعالى في فاتحة أُمّ الكتاب (الْحمْدُ لله ربّ العالمين) فمما يحمدُ الله تعالى عليه نصر الحق وأهلِهِ وتباب الباطل وأهلِه

كذلك يتعانق الجلال والجمال، وإن شئت مزيدًا من التجلّي فإن هذا يتبدَّى لك مصورًا في قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر:٢٣]قوله تعالى : (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) هاد إلى الجلال والجمال : ترى الجلال مشارًا إليْه بقوله تعالى : (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) اقشعرار الجلود إنّما هو مجلى ما يعتمل في القلوب من الخشية، وفي هذا إبلاغٌ في تصوير ما أفعم هذه القلوب من الخشية، وكان في اصطفاء فعل (الخشية) إعرابٌ عن أن ذلك الفعل مؤسَّس على علمٍ بشأن من يخشونه ﷻ، وكان بديعًا اصطفاء اسم الرّبوبية في هذا المقام، وهو اسم قد يستظهر أن الأليق به سياق الأنس، وأن الأولى أن يقال يخشون الله لما بين مقتضى الخشية والجلال الإعراب باسم الألوهية من تنادٍ، ولكن البيان القرآنيّ اصطفَى اسم الرّبوبية إشارة إلى أنّهم يخشونه متجليا بالإحسان والرّعاية، فكيف بخشيتهم له متجليًا بالعظمة والمهابة .

وترى الجمال مشارًا إليْه بقوله ﷻ : (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ) فمن جلال الخشية يتولّد جمال الشّعور بالأنس .

تبصر متدبرًا قوله: (إلى ذكر الله) لم يقل (من ذكر الله) كما قال (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ)

اخترْ ما شئت من آيات القرآن جميعا، بل اختر جملة من جمل القرآن جميعا، وتدبَّر، فإنَّك لا بدَّ واجدٌ فيها جلال الألوهية، وجمال الرّبوبِيَّة، وإن ظهر لك أحدهما قبل الآخر أو أجلى من الآخر وأقرب إدراكًا.

وعلاقة هذه الخصيصة (جلال الألوهية، وجمال الرّبوبية) ذو رحم وثيق بالخصيصة الأولى (إلهية المصدر وآدمية الغاية) على ما لا يخفَى عليك، إنْ ناظرت وأبصرت.

مجمل الأمر أنّ هذين : الجلال والجمال قائمان في كلّ معنًى من معاني القرآن الكريم. أيا كان ذلك المعنى .

فكلّ تأويل لا يبرز هذيْن : الجلال والجمال في المعنى المؤول ما هو بتأويل للمعنى القرآنيّ . وبهذا يتأتَّى لك أن تميّز ما هو معنى قرآنيّ في الآية، وما هومعنى بياني (لغوى)

المعنى القرآنِيّ القائم فيه الجلالُ والجمال تدركُه في تأويلات الأعيان من أهل العلم بالقرآن . ولا تجدهما في تأويلات غيرهم، وإن كانت تأويلات لا يُعترض عليها من جهة علوم العربية ونحوها فكم من أسفار في تفسير القرآن وتأويله لا يستشعر منها شيْءٌ من جلال الألوهية وجمال الرّبوبيّة، فيما يذهبون إلى أنّه المعنى .

الخصيصة الثالثة:

التّكاثر في أفئدة المتقين .

المعنى القرآنيّ معنى متكاثر في قلبِ العبد الذي هو أهلٌ لتلقيه. كلّما زاده تدبرًا زاده عطاءً متجددًا، فهو معنى لا يخلقُ على كثرة الرَّد، وإن عطاء المرء منه على قدر وعائه (قلبه) وطهارته وعلى قدر مهارته المعرفية في التلقّي .

فإذا رأيت ما يَفِدُ إلى فؤادك من تدبّرك البيان القرآنيّ يزداد بحسن التّدبر وتنوّع أدواته، وكلما أقبلت عليه بعدُ رأيت وفيرًا نميرًا، فذلك من المعنى القرآنيّ، فَهُو يزيد على السّبرِ والتّدبر ولا ينقض، ولا ينقص ولا يختلف، وغيره من المعاني كلّما أعدت فيه النّظر تكشفت له فيه مآخذُ أكثرُ ممّا قد يتجدَّد لك من فضائله، هي معانٍ يزيدُها تجدد النّظر فيها انتقاصا، هي أشبه بالّذي تبهرك رؤيته من بعيد، فكلّما اقتربت رأيت النُّدوب والخُطوب وما تكره الباصرة رؤيته.

المعنى القرآني شعاره مع مَن يكون أهلا لتدبّره واستنباطه (لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ) (سورة يونس : ٢٦) ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ (سُورة العنكبوت:٦٩) ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن:٦٠]

وقد هدى إلى ذلك ما يسند إلى سيدنا علي رضي الله عنه على ضعف في رفعه، في شأن القرآن وقد سَبق :« ...لاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلاَ تَنْقَضِى عَجَائِبُهُ ... [(١)]».

---

(١) ضعيف الترمذي ٢٩٠٦، وفضائل القرآن لابن كثير ٤٥ ، وهو مشهور من رواية الحارث الأعور الذي كذبه الشعبي في رأيه ورمي بالرفض وفي حديثه ضعف، وهو صحيح المعنى؛ وعليه فليس بحديث، ولعله من كلام الإمام علي.

وفي ما جاء في القرآن من نعوته ما يهدِي إلى تلك الخصيصة، وأقربها إليك، نعته بأنّه " مبارك " وفي كل هذا إغراء وتحدٍ :

إغراء لمن آمن به ألا يكف عن تطلب المزيد من معاني الهدَى،وأن يقبل عليه وهو الواثق أنه واجد فيه فوق ما يطلبُ إن أحسن التهيأ للتلقّي.

وتحدٍ لمن لم يؤمن به، أن يأتي بمعنى من معاني الحق والخير ولا يكون قائمًا في القرآن، وهذا نظير قوله تعالى في أول سورة " البقرة" : (لا رَيْبَ فِيهِ).

الخصِيصة الرابعة :

مواءمته لأحوال المومنين به على تنوع مقاماتهم الإيمانية.

لما لم يكن الذين آمنوا بالقرآن في مقام واحد من مقامات القرب الأقدس من الله تعالى.

يقول ﷻ في حديثه القدسي: « ...وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (متفق عليه).

فما يكون للذين آمنوا من المعنى القرآني ليس كمثل ما يكون للمؤمنين منه، وهكذا يتفاوت مستطعَم أهل الطَّاعة على قدر منازلهم إلى أن يبلغوا مقام الإحسان، فلكلّ غذاؤه وشفاؤه : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ﴾ [الإسراء: ٢٠]. [(١)].

---

(١) في البيان القرآني ما يهدي إلى أن مقامات القرآن الكلية أربعة: (الإيمان، والتقوى، والإحسان، والصديقية) ولكلّ مبدأ(مطلع) ومنتهى (مقطع).

المبدأ يعبر عنه في القرآن باسم الموصول وصلته (الذين آمنوا – الذين اتقوا –الذين أحسنوا – الذين صدقوا) والمنتهى يعبر عنه بالوصف (المؤمنون – المتقون – المحسنون – الصديقون)

في المعنى القرآني مستطعَم كلّ ثلة من أولئك. لا يطيقُ الأدنَى مستطعَم الأعلى إلا إذا تهيأ بصنوف الطاعات لذلك.

لو أنَّك جمعت عشرةً من طلاب العلم وأهلِه وعرضت عليهم آيةً، وسجَّل كلٌّ ما توافد على فؤاده من تدبّرها؛ لرأيت تفاوتًا بيّنا بيْن عطاءات الآية لكلّ، على أنّ كلا منتزع منها غير مسقط عليها، ولكنّه لما تفاوتت المهارات والأدوات والدّربة والبصائر تفاوتت النتائج .

بل أنت إن شئت أن تستبصر آية ما في سياقها عشر مرات متباعدات اختلفت فيها أحوالك العلمية والإيمانية، وسجلت ما يتوافدعلى قلبك من معاني الهدى فيها لرأيت فروقًا بيّنة بيْن كل حالٍ، وهذا يبين لك عن وجه من معنى قَوله ﷻ :

(وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ) (سورة الأنعام:٩٢)

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥] ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء:٥٠] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]فالمبارك ما تكاثر خيره وثبت وتنوّع فكان فيه لكل مستطعِمٍ ما فيه يرغب وما إليْه يتشوف.

في المبدأ كان البيان باسم الموصول وصلته الفعلية(آمنوا..) واصطفاء الفعلية آية على أن الإيمان مايزال فعلا من أفعالهم قابلا لأن يزيد وأن يزول، ولذا كثر الأمر والنهي لهم؛ ليتمكنوا من تحويل الإيمان من طورالفعلية المتغير المتقلب إلى طور الوصفية الثابت الراسخ الذي لا يزول، ولكنه يزيد، وهكذا تدرك الفرق بين الحديث عن (الذين آمنوا) في القرآن، والحديث عن (المؤمنين) ...وماعليك إلا أن تستقرئ المواطن المتحدث فيها عن كل، وتناظرها ببعضها لتدرك الفرق بين الطبقتين.

ناظر الآية (١٣٣)من سورة (آل عمران) بالآية رقم(٢١) من سورة (الحديد) فإنه يتبين لك الأمر.

وإذا كان النّاس في صناعتهم الحسنة نفسها متفاوتين في المثوبة فأدناهم مثوبته عشر حسنات، ثم تتضاعف إلى سبعمائة ضعف كما جاء في البيان النبوي: "عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – « إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا » متفق عليه

فإن الأمر كذلك في تدبّر القرآن منهم من له بتدبّره معنى، ومنهم من له بتدبره الآية نفسِها ألف معنى كلّ على قدر وعائه (قلبه) .

وما تطلع أحدٌ إلى أمر حكيم فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بربه بالحياة كونا وإنسانا إلا وهو واجده في معنًى من معاني القرآن الكريم .

فما على العبد إلا أن يشتدّ قربه من منزّل هذا الكتاب جَلّ جَلالُه، فإنْ كان كان له منه ما لا يكون لمن دونه . وهذا ما لا يمكن أن تجدَه في معنى أي بيان بشريٍّ يتفاوت قدر ما يستطعَم منه على قدر قربِ المستطعِم من صاحب المعنى

الخصيصة الخامسة:

امتزاج معاني التَّثقيف بمعاني التَّكليف :

من خصائص المعنى القرآنيّ أنّك لاتجد فيه معنى يكلف الله تعالى فيه العباد بأمرٍ عقديٍّ أو شرعيٍّ إلا وقد مُزج هذا المعنى بما يثقّف النَّفس المأمورة بذلك بحيْثُ إذا ما أحسنت فقه ما تخاطب به كان لها من ذلك الفقه ما يحفزها إلى أنْ تقومَ إلى ما أُمرت به قيامَ محبَّةٍ وتشوُّفٍ وتشرُّفٍ، فتخلِص لله ﷻ فيه القصد وتُتقن الصّنع، وتستطعِم فيوض العطاء. وكلّ ذلك من فيض قوله ﷻ "الْحَمْدُ للهِ ربِّ الْعالَمينَ الرّحمنِ الرّحيمِ "

ولذا تجد البيان القرآنيّ من سنته البيانية أنّه يصدر معاني التكليف بقوله ﷻ : (يا أيها الّذين آمنوا) وهو نداء يحفّز على حسن الامتثال وحسن استطعام الطّاعة في ما تؤمر به وما تنهَى عنه، وفيه من التّثيقف النفسيّ والقلبيّ والتذكير بالعهد، والإغراءِ بالإقبال ما فيه.

فما من معنًى من معاني التّكليف إلاّ وفيه وفي سياقه من التثقيف القلبيّ ما فيه، فإذا ما رأيت المستنبِط لم يلتفت إلى ما مُزج به المعنى التّكليفيّ فاعلمْ أنّه ما وفّى لك، وما قدّم لك إلا بعضًا من المعنى القرآني، فعد إلى الآيات بنفسِك تستنبط منها شطر المعنى الذي تركه، وما حمله إليْك.

ولا تكاد تجد معنى تثقيفيًا إلا في طياتِه ما يُمكن أن يستنبط منه معنى تكليفيّ، ففي القصص القرآنيّ من الأحكام العقدية والشّرعية الدقيقة الطريفة ما يتشوف أهل القرآن لها.

ولو أنّك عمدت إلى قصة سيدنا يوسف أو موسَى عَلَيْهِما الصّلاة والسّلام ،وأحسنت التدبر لرأيت فيهما من الأحكام العقدية والشرعية ما يتواءم مع مقام المسارعين في الزلفَى إلى الله تعالى.

التثقيف والتهيئة،والترويض قائم في كل تكليف، كيما يتحقق لِمن أراد أن يقوم لما به كلف ما يجعله مستشعرًا من التكليف تشريفًا، فإذا به يُقبلُ على ما كلف إقبال محبّة وتشوف. وتلك هي الحُسنَى.

« حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلاَةِ ».(النسائي: غشرة النساء من حديث أنس مرفوعا)

« يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا ».(سنن أبي داود: الأدب)

الخصيصة السّادسة :

لا يَتخالفُ ولا يتفاوت في ذاتِه ولا فِي منهاج الإبانة عنه.

ذلك أنّه معنى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتفاوت في درجة بلاغته .

"الباطل" هو كلّ ما يبطله غيرُه، ذلك أنّ محور معاني كلمات مادة (الباء والطاء واللام) تدور على " أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ ذَهَابُ الشَّيْءِ وَقِلَّةُ مُكْثِهِ وَلُبْثِهِ[1]".ا.هـ، كما يقول ابن فارس في"مقاييس اللغة".

والقرآن لاتزول معانيه ولا تحول منها الحقّ الثابت، فمهما تغيرت الأعصار والأمصار والثقافات والحضارات، فإنّ المعنى القرآني يبقَى راسِخا شامخا مصلحًا كلّ زمان ومكان وإنسان .فإذا لم يحقق الإصلاح، فلأمرٍ في ما يراد إصلاحه بالمعنى القرآنيّ أي لفقد ما يراد إصلاحه القبالية للإصلاح. ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ (سورة النمل: ٨٠ – ٨١)

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم:٥٢-٥٣]

---

(١) مقاييس اللغة ١/ ٢٥٨.

ولما كان المعنى القرآنيّ لا يأتيه الباطل بتةً كان لزامًا ألاّ يتناقض أولا يتخالف، بل وألاَّ تتفاوت في منازل الكمال ولا تتفاوت في منهاج الإبانة عنها، وإيصالها إلى أفئدة من هو أهل لأن يتلقّى .

فمن ذهب إلى أنّ المعانى القرآنية وصورها تتفاوت بلاغةً، فإن أراد تفاوتها في تحقيق المطابقة، والقدرة على الوصول إلى أفئدة السامعين، وتمكنها منها، فذلك غير قويم، وإن أريد تفاوتها في عدد المقتضَيات (بالفتح) فذلك لا يسمى تفاوتًا، وإنما هو تنوع اقتضاه المقام والسّياق والمغزى، وهذا هو كمال البلاغة عينها، ولو جاء على غير ذلك ما كان البيان بليغًا، فليست بلاغة البيان بكثر المقتضَيات(بالفتح) فقد تَكْثُرُ ولا يقتضيها المقام والمغزى فيكون ذلك هو القبح عينه. وهو لا يتفاوت بأن هذا كلام في شأن الله تعالى وحزبه، وهذا كلام في حال الشيطان وحزبه . ومن جعل هذا عيار التفاوت فكأنّه ماذاق شيئًا من هذا العلم . من ذا الذي يذهبُ إلى أنَّ البيان في "آية الكرسيّ" أبلغ من البيان في سورة"المسد " ؟.

البيان عن المعنى القرآني في "آية الكرسيّ" كمثله البيان عن المعنى في سورة"المسد" في تحقق خصائصه على كمالها كل هو كَميل البيان جلالاً وجمالا.

*** *** ***

الخصِيصَة السّابِعة:

حسن علاقة المتلقّي بقائله يزيد من عطاءات التلقّي.

المعنى القرآنيُّ لمَّا كان ممّا لا سبيل للعقل أن يصنعَه ويسْتنبطه منْ خارج النّص القرآنيّ لأنّه معنى إلهيّ، كما بينتُ قبلُ كان ذلك مقتضيًا أنّ من عوامل تلقّيه واسْتحصاده واستطعامِه حسْن علاقة العبدِ بقائلِه سبحانه وتَعالى، وأنت لا تجدُ قطُّ بيانًا غير بيان الوَحيِ قُرآنًا وسُنّةً يؤثّر حسنُ علاقةِ المتلقّي بقائلِه في حُسن تلقِيه فقهًا وفهمًا. نعَم يؤثّر حُسن العِرفان بشأنِ القائل وحاله وأخباره ... في حُسن فهم بيانِه، لكنَّ حسن العلاقة به والتودّد إليْه وكلّما زاد في القربِ منه والطَّاعة له، والتَّزلّف إليْه والقنوتِ والاستسلام لمرادِه لا يتحقّق إلا في بيان الوحي قُرآنًا وسُنّةً . فمنْ أعظم عوامل حُسن التّلقّي للمعنى القرآنيّ وثاقة العلاقة الحُسْنى بقائلِه ﷻ.

وقد هدَى القرآن الكريم إلى ذلك في مواطن عدّة، ولعلّ أولها ما جاء في مفتتح سورة (البقرة) حين قال جَلّ جَلالُه : (بِسْمِ اللهِ الرَّحمَن الرَّحيم الم ❊ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) (سُورة البقرة: ١، ٢)

تأملّ قوله تعالى : (هدًى للمتَّقين) في قوله (للمتَّقين) تخصيص لمن يكون ذلك الكتاب الّذي لا ريبَ فيه بأنّه هدًى للمتقين. وحين يستصحبُ القارئ كلمة "المتّقين" ويسعَى بها في البيان القرآنيّ في سياقه المديد يجدُ أنّها ترِدُ ومعناها يشير إلى ثلّةٍ من أهلِ القُربِ الأقدسِ من الله ﷻ تعلُو مقام ثُلّة "المؤمنين" ودون مقامِ ثُلّة "الْمحسِنين" فيتسائل : إِذَا ما كانوا كذلك، فكيف يقال هنا: "هدًى للمتّقين"؟ أليس الأقربَ أنْ يقال: (هدًى للنّاس) كما قال في السّورة ذاتِها : (شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ ...)(سُورة البَقَرة : ١٨٥)

جمهرة أهلِ العلم على أنّ قوله (هدًى للمتقين) هو من قبيل هدًى لمن سيكونون متقين، فكأنّه ممّا يسمّيه البلاغيون: مجازًا باعتبار ما سيكون، إشارة إلى أنَّهم إِنْ فعلوا فاهتدوا به كانوا بذلك من المُتّقين أو هو كقولك للعزيز المكرم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته، كما يذهبُ إليْه الزمخشري في كشافه [١].

والّذي إليه أذهب أنّ قوله(هدًى) هو هدى إعانة وتسديد وتوفيق، وليس هدى إبانة فحسبُ كمافي (هدى للناس) فهذي هداية إبانة وإرشاد، فهو للناس كافة مبين ومرشد،وهو للخاصة إعانة وتوفيق وتسيد، ولذا أذهب إلى أنّ كلمة "المتقين"هنا ليست في قبيلِ المجازِ في شيءٍ، بلْ هي على الحقيقةِ الصّرفة، ومعمول اسم الفاعل (المتقّين) راجعٌ إلى ما ذكر من أنواع الصّراط في آخر سورة (أم الكتاب) :

في آخرها ذكر ثلاثة أنواعٍ مِن الصراط:

صِرَاط الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ : الذين علموا الحق وعملوا به: (المؤمنون)

صِراط الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ : الذين علموا الحقّ ولم يعمَلوا به (ونموذجهم في الحياة أحبار اليهود)

صِراط الضَّالِّينَ: الّذين لم يعلموا الحق، وعملوا بأهوائهم (ونموذجهم في الحياة رهبان النصّارى)

---

(١) ينظر الكشاف وعليه حاشية الطيبيّ : فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب نشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم .ط(١) عام: ١٤٣٤ هـ. ج: ٢/ ٦٣.

فقوله:(هدى للمتّقِين) يلحظ آخر سورة "أمّ القُرآن" كما لحظ قوله: (ذَلِكَ الكِتّاب) قوله:(اهْدِنا الصّراط المستقيم) فكأنَّه قيل : الصراط المستقيم الذي طلبتم الهداية إليْه هُو ذلك الكتاب) وهذا من عوامل وثيق علاقة سورة "البَقرة" بِسُورة "أمّ الكتاب"

فمن أصول حسن التلقّي عن الله ﷻ أن يجتهدَ المريد تلقّي معانِي الهدى من الله ﷻ أن يكون متقيًا صراط المغضوب عليهم وصِراط الضالين. ذلك أنّ " الانقياد للحَقّ بعدما تبيّن شرطٌ أساسِيٌّ للانتفاع بالكتابِ وبِغيرِالكتَابِ مِن كلّ قولٍ أوْ فِعلٍ يَدعُو إِلَى الرّشَدِ، وهذا شَأْنُ المُبرَّآةِ مِن السُّوءِ"(١).

ويأتيك في مواضع عدَّة من الذِّكرالحكيم بيانُ أنّ هذا القرآن ليس هدًى فحسبُ لمن آمن بِه وتأدَّب بما فيه، بلْ هو يزيده في هداه ويبسطُ له من الشّفاءِ ممّا قد يعتريه من الأوضار في طريقِه إلى ربِه سبحانه وتَعالى : ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فُصِّلَت:٤٤] تبصّر جمعه بيْن" الهدَى"و" الشفاء" في حقّ الذين آمنوا، وكأنّه لما أعرب عنْ هذه الثّلة من أهل الطاعة الصّفاء بقولِه:"الذين آمنوا" معرفهم باسْم المصُولِ وصلته، مما يهدِي إلى أن إيمانَهم الذي به يعرفون، والذي هو حليتهم، وكأنه ليس لهم من الخصالِ والأفعال غيرَ هذا الفعل : الإيمان بما أمر الله ﷻ الإيمان به في كتابِه وسنة رسوله ﷺ ما يزال فعلاً من أفعالهم ،لمّا يرقَ إلى أن يكونَ صِفة ،فيعربُ عنهم بأنّهم"

(١) آل حم: غافروفصّلت: دارسة في أسرار البيان لشيخنا محمد ابي موسَى . نشر مكتبة وهبة. القاهرة. ط(١) عام١٤٣٠هـ ص: ٤٥٥.

المؤمنون" كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢ - ٤]

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون:١ - ٣] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجُرات:١٥]

لما كان " الّذين آمنوا" لم يترقّ إيمانهم من طورِ "الفعلية" إلى طور" الوصفيّة" كانوا بحاجة إلى ما يَشفيهم من الأوضَار العالقة بهم، فكان القرآن لهم "هدًى" و"شِفاء" بيْنما هو لمن فوقهم : هدى وزيادة:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة:٩٧] (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) (سُورةآل عمران: ١٣٨) تبصر قوله (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ) جعله للناسِ بيانًا، بينما المتقون جعلهم لهم هدًى وموعظة.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة:٤٦]

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف:٥٢]

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف:٢٠٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

﴿ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧]

﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١١١]

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل:٦٤]

﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩]

﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل:١٠٢] تأمل قوله تعالى (لِيُثبّتَ الذين آمنوا) فذلك يلحظُ قوله تعالى :(قُلْ هُوَ للّذين آمنوا هدًى وشِفَاءٌ)

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء:٨٢]

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النمل:١-٢]

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النمل:٧٦ -٧٧]

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [لقمان:١-٣]

﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف:١٢]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٧]يتبيّن لك ممّا سبق أنّ القرآن يفتقر متلقّيه إلى أن يكون ذا علاقة وثيقة بالله ﷻ ليكون هذا الكتاب هدًى، ومن جاهد في أن يكون قريبًا من الله ﷻ كان له من الله ﷻ فيضٌ من العطاء:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (سُورة العنكبوت:٦٩) [١].

وكلَّما زدات علاقته بالله ﷻ وتسنّم مدارج القربِ الأقدس إلى أن يقومَ في منازل المحسنين كلّما زاد عطاء القرآن له :

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٥-٢٦]

(إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (سورة الأعراف:٥٦)

---

(١) تبصّر متدبرًا موقعَ هذه الآية الّتي هي رأس المعنى وخاتمته في سورة" العنكبوت" سورة "التّمحيص" و"الابتلاء" و"الفتنة"، ليميزالله ﷻ الخبيثَ مِن الطَّيب، وكيف أنَّه ﷻ استهلَّ السُّورة بأنَّ " التّمحيص"و "الفتنة"والابتلاء" و"الاختبار" و"سبرَ الأغوار" و"قياسَ طاقات" التَّحمّل سنة إلهية في الذين شاؤوا أن يسلكوا سبيل الحقّ ونصرته بالحقّ وسبيل الخير وصناعته ونشره في النّاس كلّ الناسِ، فكلّ داعٍ بلِسان حاله ومقالِه أو لسان حالِه وحده، هو لا ريب مناط تمحيصٍ واختبارٍ وابتلاء بالخيرِ حينًا، وبالشّر حينًا، فإن جاهد في الله ﷻ كان له من الله ﷻ الهداية إلى سبل الحق والخيرِ وكان له من معية التّوفيق والتّسديد والنّصرة والحفز والإعزاز ما لا يكون للآخرين .فالآية بالغة العلاقة الوثقَى بمفتتح السّورة.

وهذا الموضع من المواضع الظاهرة جدًا في باب " ردّ الإعجاز على الصدور" كما تراه في خاتمة سورة "البقرة" مع فاتِحتِها وخاتمةِ سُورة" النحل "مع فاتحتها، وخاتمةِ سُورةِ"الإسراء " مع فاتِحتِها وخاتمةِ سورة "الكهف " مع فاتِحتِها وكثير كثيرٌ غير ذلك، فلا يفتقر إلى تبيينه إلا مَن ليس له بالعلم والتبصر نصيبٌ.

تبصّر قوله: (قريب) على التذكير، ورسم كلمة (رحمت) بالتاء المبسوطة، وعلاقة ذلك بقوله ﷻ: (المحسنين).

محصَّل القول في هذا الخصيصة السّابعة أنّ المعنى القرآنيّ وحده هو المعنى الّذي لعلاقة السّاعِي إلى تلقيه فقهًا وفهمًا بالمتكلّم بِهِ ﷻ أثرٌ بالغٌ في وفرة العطاء وتجدّده وتنوّعه وديموميّته. ممَّا يهدي كلَّ مُقبلٍ على أن يتلقّى عَن الله ﷻ أن يجتهد في امتلاك هذا العامل الفتيّ الصّفيّ وبملكك أن تختبر ذلك من نفسِك، انظر حالَك وأنت تلقّى معنى آياتٍ من الذِّكر الحكيم، وارصد علاقتك بالله ﷻ حينها، ثمَّ ارصد عطاء الآيات لك، وما توافد علي فؤادك من اجتهادك في تدبّرها، ثُمَّ اجتهد في أن تخطو خطواتٍ في الطريقِ إلى ربّك ﷻ، وأن تتقربَ إليه بمثل ما افترضَه عليك جنسًا وكيفًا ثمَّ أعد التّبصّر متدبّرًا فيما سبق أن تبصّرت، وانظر ما يفدُ على فؤادك من تبصرك متدبرًا هذه الآيات أَوَ كان لك مِن العطاءِ ما هو أوفرُ وأنضرُ ؟.

ذلك هو ما يهديك إلى أنَّ الذي وفَد على فؤادِك إنّما هو منْ معاني الهُدَى القرآنيّة، واستبشر بالّذي هو خيرٌ؛ لأن الله ﷻ لا يجعل تلك المعاني في قلبٍ خربٍ.

*** ***

تلك بعض من الخصائصِ الكليّة للمعنى القرآنيّ المستنبط وفق أصولِ الاستنباطِ المنضَبطِ بعواصمَ من قواصمِ الفهم، ومن شاء أن يَسْتَنْثِرَ مِن كلّ خصيصة كلّية خصائص جزئية لكان ذلك منه قريبا.

وأنت تَرَى أنَّ الَّذي قلت هنا إنّما هو في شأن المعنى الذي حمله إلى القلب البيانُ أي في شأن المُبَان عنه، لا في شأن منهاج الإبانةِ عنه، وهذا غيرُ الَّذي قرّره

العلاَّمة المتفرّد الأحوذي الشّيخ محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ في كتابِهِ العُمدة الفاتح لما أغلق :" النبأ العظيم"[١] فالذي جاد به علينا إنّما هو من خصائص أسلوب القرآن، وجعل عمود أمرها أنّه أسلوبٌ " تلتقِي عندَه نهايات الفضيلة كلّها، على تباعد ما بيْن أطرافها":

= جمع بين القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى.

= وجمع بين خطاب العامة وخطاب الخاصة.

= وجمع بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة.

= وجمع بين البيان والإجمال [٢].

فهو ـ رحمه الله ـ نظر في منهاج الإبانة (البيان/ الأسلوب) ونظرتُ في خصائص المعنى المبان عنه بذلك البيان الذي تلتقِي عنده نهايات الفضيلة كلها، على تباعد ما بيْن أطرافها، فحسنٌ أن تجمع في وعيك ثمار النَّظريْنِ ..

*** ***

---

(١) في تسمية العلامة الإمام الشيخ محمد عبد الله درازكتابه" النبأ العظيم" من اللطف ما فيه، فقد يفهم أن المراد به "القرآن الكريم" وقد يفهم منه أنّ كلامه هو 6 في هذا الكتاب نبأٌ عظيم، والجمع بين القصدين والفهمين جمع بين فضيلتين، فهوبحقّ نبأ عظيم من عالم كريم عن نبأ عظيم من رب عليّ حكيم .

(٢) ينظر كتاب: النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن . تأليف محمد عبد الله دراز. نشر:دار القلم. الكويت. ط(٤) عام ١٣٩٧هـ.ص: ١٠٨ وما بعدها

مستويات المعنى القرآنيّ .

يتّسم المعنى القرآنيّ أنّه معنى متحرِّكٌ ينمو كلّما أضيف إلى معنى الجملة في الآية معنى جملة أخرى نما وتصاعد، وهكذا معنى الآية إلى الآية، والسّورة إلى السورة. فالقلبُ في تلقّيه ذلك المعنى يرتقِي مِن منزل إلى منزل أسمَى، إلى أن يبلغ شرَف المعنى القرآنيّ وذروته وسنامَه المتمثّل في سورة" الإخلاص"وهذا لا سبيل لأحدٍ أن يجده في كلام غير الله ﷻ .

وقد هدَت السُّنة إلى أنَّ صاحب القرآن يوم القيامة يقرأ القرآن، فيرتقَى بكلِّ آية درجة .

روى أبو داود في كتاب(الوتر)من سننه بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ الله عَنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا ».(ورواه الترمذي، وأحمد) (١).

فالعبد المتدبّر آيات الذّكر العليّ الحكيم في نسق التلاوة يترقّى ويتصاعد فؤاده، نظير تصاعده في درجات الجنة يوم القيامة، فصاحب القرآن هو في مسيره في الحياة الدّنيا مترقٍ في جنة معاني القرآن، كمثل ما سيكون له يوم القيامة من التّرقّي في درجات الجنة. وهذا يهدي إلى أهمية ملاحظة المتدبرِ نمو المعنى وتصاعده وصاحب القرآن إيمانا وتلاوة وتدبرًا وتخلقًا أكرم على الله ﷻ من أن

---

(١) تأمل قوله ﷺ (لِصَاحب القرآن) فهي صحبة إيمانٍ وترتيل وتخلق .فمن لم يجمع الثلاثة فليس بصاحب قرآن.

يؤجل دخوله الجنة إلى يوم القيامة بل هو ﷻ جعل جنتَه القرآنَ، له منه ما سيكون له من الجنة في الآخرة من الرّضوان والزُّلفَى، فالمعذَّبون في الأرض هم الّذين هجروا القرآن، والمنعمون هم أصحاب القرآن إيمانًا وترتيلاً وتدبرًا وتخلّقًا ودعوة إلى الله تعالى بلسان الحال قبل لسان المقال ،فاعتبروا يا أولي الأبصار .

وبملكك أن تجعلّ هذه المستويات للمعنى القرآنيّ مستويين كليين:

المستوى الكُلِّيّ الأوّل:

هو ما أسميه"**المعنى الجُمْهوري**" وهو الذي يتلقاه كلّ ذي أذن ينطق العربية ويعقلُ عنها أيّا كان مستوَى وعيه المعرفيّ وقدرته التّأويلية، ولذا جعلت نعته" الجُمهوريّ" مريدًا أنّ جمهور السَّامعين النَّاطقين بالعربية يمكنهم إدراكه إن أرادوا .

وهو ما يعرف بـ" معنى المنطوق" أو "مدلول العبارة" وهو ما ثبت باللفظ وكان مقصُودًا إليْهِ قصدًا رئيسًا .

فهذان شرطان لا بدَّ من تحققهما، فليس كلّ ما ثبت باللفظ هو من مدلولُ العبارة، بل لا بدَّ أن يكون مناط القصد الأوّل الرّئيس، فالقصد عنصرٌ رئيسٌ في هذا .

وقولنا : ما ثبت باللّفظ أي أنَّ السّامع العارف بلسان العربيّة يعرف هذا المعنى بمجرّد سماعِه القولَ دون أن يتوقف على شيْءٍ من خارج ظاهر القول وعبارتِه، والنّاسُ الّذين يعرفون اللسان في هذا سواء، فقوله ﷻ : (وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (سورة البقرة:١٦٣) وقوله ﷻ: (وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ)(سورة النّحل:٥١)

الخطاب في مثل هذا يدلّ على المعنى الجمهوريّ بذاتِه دون أن يتوقفَ على مستوًى معين من التلقّي لدى السّامع ليتمكن من الاستدلال بالخِطاب عليه، فهذَا عِيار "المعنى الجمهوري "، وإن شئْت سمه "ظاهر القول؟ وكلمة ظاهر هنا لا أريد بها المصطلح الأصوليَّ قسيم مصطلح "النَّصّ" و"المفسر" و" المُحكم" بل أريد المعنى الظّاهر البادِي لكلّ سامعٍ، فكأنّه خرج مِن بطن العبارةِ إلى ظهْرها، فصار مكشوفًا لكلّ ذي سمعٍ .

هذا المعنى الجُمهورّيُّ لا يحتاجُ المرْءُ معه إلى مهارَةِ الاستنباطِ . وهو غيرُ قليلٍ في القرآن الكريم، ويغلبُ أن يكونَ في المعانِي الرَّئيسةِ المتعلِّقة بالعقيدةِ ولاسيما وحدانيةِ اللهِ ﷻ والبعثِ، وإثباتِ النُّبوَّةِ والرّسالةِ .

وكثيرٌ مِن أحكامِ الشَّريعةِ أمرًا ونهيًا له من ذلك المعنى نصيبٌ وفيرٌ.

وعُظْم آياتِ القرآن لها معنى ظاهرٌ يمكن أن يدركَه كلُّ سامِعٍ إلاَّ أنَّ بعضَ الآياتِ يفتقرُ السَّامِع إلى ملاحظةِ السِّياقِ ليَضبطَ معالمَ هذا المعنَى الجمهوريِّ، فالقراءةُ التَّجزيئِيَّة(العِضين) الَّتي تفصِم الجُملة أو الآيةَ مِن سياقِها (السِّباق واللّحاق) قد تفضِي إلى خطيئةٍ فِي التَّلقّي . كمثلِ مَن يفصِل قولهﷻ : (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) (سورة فصلت:٤٠) عن سباقه ولحاقه، فيزعمُ أنَّ فيه إباحةً لفعلِ ما تريد، أو يفصل قوله ﷻ : (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(سورة الكهف: ٢٩) فيزعم أن الله ﷻ أباح للعبد أن يؤمَن أو يكفر وهو ما يسمُّونه "حريّة الاعتقاد"، وكلّ ذلك من الضلال المُبين المُبير، فلو أباح حريةالاعتقاد ما عاقب من كفر وأثاب من آمن، فإن المباحات لا عقوبةَ على من تركَ، ولا مثوبة لِمن أخذ. ولوأنهم صبروا فسمعوا قوله ﷻ في سياقه :(وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ

فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف:٢٩ - ٣١]لما قالوا ما قالوا.

والمستوى الكليّ الآخر:

هو ما أسمّيه "**المعنَى الإحساني**"، وهو معنًى مكنونٌ في باطنِ العبارة، وهو ذو درجاتٍ في اكتنانِه وبعدِه عَن ظاهرِ العبارةِ أو مِن ظهرِ العبارة ومتنِها وسطحِها. وهذا هو الَّذي يفتقرُ المرْء إلى قدرٍ مِن مهارةِ الاستنباطِ . والعلماءُ في تحصيلِه متفاوتون جدًا، بل والعالِم الواحد يتفاوت مقامه في هذا بتفاوت أحوالِه القلبيّة والنّفسيّة والعقليّة والعلميّة... ممّا يحفز أهلَ العلم على أن يجتهدوا في أن يكونوا على حالٍ هم بها متأهّلون لفيضٍ من دقيقِ لطائفِ هذه المعاني الإحسانيّة.

أيُّنا لم تمرَّ عليْه آية في سياقٍ نفسيٍّ وعقليٍّ وقلبيّ وروحيّ، فيبصرَ فيها معانيّ لطيفةٍ تجعله كأنَّه يسمعُها أوَّل مرَّة، وهو الّذي قرأها عشرات أو مئات المرّات، وهو يحفظها، وربما فسَّرها ودرَّسها لطلاب العلم، ولم تكنْ هذه المعاني قد كَشَفَتْ عن وجهها له. تلك المعاني هي مِن هذا المستوَى الَّذي اسْمَيْتُه "**المعانِي الإحسانيّة** ".

آثرْت تسميتَها المعاني الإحسانيّة لأمرين رئيسين:

الأول : الإشارة إلى ما به يمكنك تحصيل هذا المستوَى مِن المعاني، وهو إحسان الاستعدادِ للتقّي فقهًا وفهمًا، وذلك بالسّعي الحثيثِ إلى امتلاكِ مهاراتِ التّلَقي وأدواته الحسيّة والمعنويّة. والتّعرّض لنفحاتِ الله ﷻ وفيوضاتِه، بالتزلّف

إليه بما يُحبّ أن يتزلّف بِه إليه، وهو التّنفّل بما هو مِن جنسِ ما فرضٌ عليه. ألا ترَى أن الله ﷻ في حديثِه القدسيّ يقول : « ... وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ ... » (البخاريّ : الرّقاق).

ومَن كان هذا مقامَه في محبة الله ﷻ له، فهو البصير السّميع لما هو مكنونٌ مِن لطيف معاني الهدى وطريفها، وهو المتأدب بها إيمانًا واحتسابًا.

والآخر : الإشارة إلى أنّ هذا الضَّرب من المعنى كلّما أحسنت في طلبِه أحسن إليك في عطائه؛ وهذا ما أنت تلقاه مِن نعت القرآن بأنّه لَا يَخْلِقُ على كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا يَنْقَضِي عَجَائِبُهُ. وقولهم فيه : إنّ هذا القرآن لا يختلِف ولا يُسْتشنُّ ولا يَتْفَهُ لكثرة الرّدّ.

المعنى الإحسانيّ مستكِنٌّ في كلِّ جملةٍ، فلا تكاد تجدُ جملة أو ما فوقها في أيّ سورةٍ مِن سور القرآن إلاّ وهي مترَعةٌ بالمعاني الإحسانيّة الّتي يَعجِزُ العالمون عن الإحاطة بها، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا، منها ما يدلّ عليه شيْءٌ مِن سياقِ المقالِ، ومنها ما يدلّ عليها شيْءٌ من سياق الحال .

ولهذا حثّ الله ﷻ على تدبُّره: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَاب) (سورة ص: ٢٩) .

في سياق سورة (ص) وهي سورة أقيمت للقول في المصَّادة عن سبيل الله والمحادّة[١] أقيمت هذه الآية في مقامٍ يعترضُ سياق قصة سيدنا "داود" وابنه " سليمان" عليهما الصَّلاة والسّلام وكانت في أعقابِ مشهدِ القضاءِ في خصومة الّذين تسوّروا المحرابَ طالبين منه ما هو فريضةٌ على كلِّ ذي ولايةٍ . (فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) (سورة ص:٢٢) وذلك هو أساسُ الحُكمِ العدلِ في كلِّ أمّة، ثُمَّ جاء قوله ﷻ : ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص:٢٦] وفي أعقاب هذا الامتنانِ على سيدنا داود عليه السلام جاء البيانُ لأمّة الإسلامِ كيما تنظرَ إلى ما يقوم عليه الوجودُ الحقُّ الرَّاسخُ، جاء البيان عن الحقيقة الكبرى : حقيقة أنّ الكون ما خُلق باطلا، وأنه لا يستوِي أهل الهدَى وأهل الضَّلال، وأنّ كتاب الله المبارك أنزل لتتدبّره الأمّة، فتهتدِي إلى ما يحقّق لها القيامَ بما عليها من تكاليف الخلافة الحقّة، فبهذا التّدبّرِ يتمكنُ أولُو الألبابِ من أهل العلم من استنباط ما فيه صلاحُ الكونِ ومن الوفاءِ بحقِّ الله ﷻ ثُمّ بحقِّ خلقِه، وليتذكَّروا تلك الحقيقةَ الّتي صَحِبتْ أبا البشر آدم عليه السلام حين أهبط: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة:٣٨]

جاءت هذه الآيات في أعقاب قصّة سيدنا داود عليه السلام وفي صدر قصة ولده سيدنا سليمان عليه السلام الّذي كان هبة الله ﷻ لداود عليه السلام والّذي قد أُوتى فهمًا في

(١) ينظر كتاب :الزمر ومحمد وعلاقتهما بآل حم. دراسة في أسرار البيان .لشيخنا.مكتبة وهبة.ط(١)١٤٣٣هـ ص:٧، وما بعدها.

استنباط الحقيقة لم يؤتَ مثله داود ﷺ (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا...) (سُورة الأنبياء :٧٩)

وهي إذ تنزل منزلة الاعتراض بين فصلين متلاحِمين من فصول القصص القرآنيّ تُشيرُ إلى أنّه لا تستقيم الخلافةُ في هذه الأرض إلاّ بالعدل الذي لا يُسَوِّي بين الّذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين، ولا بين المتقين والفجار، ولن يكونَ ذلك العدلُ إلا إذا استنبِطتْ أصوله وفروعه من وحى الله ﷻ إلى رسُوله ﷺ بالتدبر في آياته والنَّظر فيما يؤدى إليه ذلك التَّدبر ويوصّل إليه مِن دقيقِ العلم وعظيمِ الحكمةِ.

لا يكون تدبّرٌ لما سميته "المعنى الجمهوريّ"؛ لأنّه مستوًى واحدٌ متعيّنٌ، لا يتفاوت طلاب العلم في تلقيه. إنّما التّدبّر لما هو مدارج متصاعِدةٌ إلى أفق لا يتناهَى . وذلك هو المعنَى الإحسانيّ، فقوله ﷻ: (ليدَّبروا) برهانٌ على أنَّ في هذا البيان القرآنيّ معانِيَ إحسانيّةً لا تستطْعَم إلاّ بالتّدبّر، ومنْ ألطفِ هذا المعاني الإحسانيّة الّتي يفتقر في التّطواف حول حماها إلى اجتهاد وجهادٍ في تحقيق فريضة تدبر المعاني الَّتي تتولَّد من العلاقات بين المعاني وتناسبها وتراتبها على مستوى الآية وما فوقها إلى السّورة إلى القرآن الكريم كلّه.

وفي قراءة (يدبّروا) على وجهين : بالتّاء، وتخفيف حرفِ الدّال (يتَدَبَّرُوا) وهي قراءة أبى جعفر وأبى بكر عن عاصم، وبالياء وتشديد حرفِ الدَّال (يَدَّبَّرُوا) وهي قراءة الباقين دلالةٌ على آفاق التّدبّر الهادي إلى استنباط الدّقائق والحقائق :

القراءة الأولى بتخِفيف حرفِ الدّال تشيرُ إلى المستوَى الأدنى من التّدبّر.

والقراءة الأخرَى بتشديد الدّال تُشيرُ إلى المستوَى العالي من التّدبّر الّذي يستفرغ فيه أئمةُ العلم جهدَهم، فيستنبطون اللطائفَ كما كان يفعل حبرُ الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ويدخل في هذا المعاني المستحصَدة من تدبر علاقات المعاني وتناسبها وترتيبها على مستوى الآية والسّورة وما فوقهما .

وإذا ما كانت الآية قد جعلت التّدبّر مدخولَ لام العلّة أوالعاقبة (ليدّبروا) وكان التّدبّر هو استمراريّة فعل التفكّرِ والتبصر في هذا البيان في سياقه مما يهدى إلى أنّ هذين الفعلين : التفكّر والتبصّر، وما يتبعهما لا نهاية لهما ـ إذا ما كان ذلك، فليس التّدبر غاية عُظمى في ذاته، بل هو خطوة إلى غاية أبعد وأسمَى وأجدى : غاية تحصيل المعنى القرآني من البيان، وتحصيل ذلك ليس هو المنتهى في السَّفَر، بل هو مرحلةٌ إلى مرحلة أخرى هي استطعام ما استحصد من معاني الهدى؛ ليتحقَّق للمرء القيام في مقام العبوديّة الّذي جائزتُه محبة الله ﷻ للعبد المتحقق بالعبودية الصّفاء..

وهذا يهدِي إلى أنّ كلّ مدارسة لمعنى من معاني الهدَى في القرآن في سياقه مهما بذل فيه منْ جهودٍ متظاهرة فإنّه يبقَى بكرًا كأنّه لم يستزرَعْ مِن قبل شريطة أن يؤتى تستنباط المعنى مِن جهة غير الّتي أتي إليْه منها من قبل، فإن مدخل الفؤاد في تدبّره إلى المعنى هو الّذي يعينه على أن يبصرَ ما لم يبصره من قبل، فليس مِن الحكمة أن تعيد التّفكر والتّبصر في المعنى القرآنيّ بالمنهج والأدوات والمهارات السّابقة الّتي علاجته بها، بل على الدّارس أن يجتهد في تزكية منهجِه وتذكيتِه وتكثير أدواته وتنوعيها، وتنمية مهارته وتفعيلها ثمّ يبحث عن مدخل

جديدٍ إلى هذا المعنى، حينئذٍ سيحظى منه بِعطايا لم يكن له منها شيءٌ . وشأن المسلم المتأهِّل للتلقّي عن الله تعالى أنّه يزداد رصيدُه من الحسنات، وتتقدم خطاه في طريقه إلى الله ﷻ كلّ يوم، فقدراته اليوم خيرٌ من قدراته أمسِ ،وهو غدًا خيرٌ منه اليوم . وهكذا كلّما مضى يوم كان إلى الله تعالى أقرب. فكان اقتداره على أن يتلقَى من هذه المعاني الإحسانية أقوى. فكيف إذا ما جمع إلى هذه المدارسة والدربة الرواية ؟.

ألا ترى أن عبد الله بن مسعود ﷺ يقول : « إِذَا وَقَعَتُ فِي آل حم وَقَعْتُ فِي رَوْضَاتٍ دَمِثَاتٍ أَتَأَنَّقُ فِيهِنَّ» (مسند ابن ابي شيبة: أثر رقم: ٣٠٢٨٥) أي أتتبع حسنهن، فقد كنّ يسمَيـْن العرائس، ويسمّيـْن ديباج القرآن. وهذا يلحظ قولهم " لا يخلق على كثرة الرَّد ولا تنقضِي عجائبُه" وهذا بلا ريب وجهٌ من وجوه إعجازه، وإن لم يقع به التحدّى عدلاً وفضلا.

والمعاني الإحسانيّة هي ولائد المعاني الجمهورية، فليس ثَمّ معنى إحسانيّ غير خارج من رحم المعنى الجمهوريّ فكلّ ما يسميه أهل العلم بالبيان "معنى المعنى" وإن توالى إلى ما لا نهايةٍ هو من المعاني الإحسانيّة، وقد يكون بين المعنى الإحسانيّ والمعنى الجمهوري وسائط متعددة بعضها جليّ وبعضها خفيّ، لكن سلسلة النسب وثيقة وإن كان جدَّ مديدة، فمن عوامل علو شأن المعنى الإحسانيِّ وثاقة نسبه بالمعنى الجمهوريِّ، ثمَّ إِذَا ما امتدَّت حلقات النَّسب ولطفت العلاقة كانت الأفئدة إليه أشدّ تشوفًا.

والمعاني الإحسانيّة ليست من قبيل ما يُسمى بـ"المعنى الباطنيّ"، فما هو معنى باطنيّ نسبة إلى باطن البيان، بل هو باطني لأنه خرج من بطن قائله لا مِن بطن البيان نفسِه. أما ما أخرج من باطن البيان فإنما هو المعنَى الإحسَانيّ".

*** ***

الرؤية القلبية :

يقُول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام:٧٥] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق:٣٧]

في البيان القرآني ثلاثة أفعال للإدراك : نظر، وأبصر، ورأى، وهي منسوقة نسقًا تصاعديا، فأدناها (نظر) وأعلاها (رأى) ولا تكونُ الرّؤية إلا بإدراك قلبيّ .

النّظر أداته البصر، فإذا ما صاحبه البصيرة كان النظر بصرًا، فإن زاد فعل البصيرة صار البصر رؤية، وأداته "القلب" فنصيب البصيرة في الرّؤية أعلى من نصيبها في البصر، فالرؤية نفاذٌ إلى حقيقة الأشياء، فإنّ لكلّ حقٍّ حقيقة [١].

وثَمَّ فرقٌ بين رؤيتين: رؤية عقلية ورؤية قلبية: الرُّؤية العقلية لا تدرك إلا المعنى النّظميّ للقرآن، أمَّا المعنى القرآنيّ فهي عنه جدّ بعيد .

---

(١) "قال الْحَرَالِّي: أول موقع العين على الصورة نظر، ومعرفة خبرتها الحسية بصر، ونفوذه إلى حقيقتها رؤية، فالبصرة متوسط بين النظر والرؤية، كما قال، سبحانه وتعالى: {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} فالعبرة هي المرتبة الأولى لأولي الأبصار الذين يبصرون الأواخر بالأوائل، فأعظم غلبة بطشه في الابتداء غلبة بدر، وأعظمها في الانتهاء الغلبة الخاتمة التي لا حرب وراءها، التي تكون بالشام في آخر الزمان – انتهى. ."(تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير. جمعه وحققه: محمادي بن عبد السلام الخياطي نشر: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط.ط(١) عام: ١٤١٨ هـ. ص: ٥٢٥.

وهذه الرّؤية العقلية تتحقَّق بالتّمكّن المعرفيّ من دقائق العلوم الكسبيّة ومن تطبيقِها وإنْ كان مليكُها غيرَ وثيقِ العلاقة بربِه ﷻ بل قد يكون غير مؤمنٍ به، وهي رؤيةٌ يتقاربُ فيها النّاسُ، ويمكن تعليمُها . وقد يكون صاحبها خِرِّيتًا في مدارسة القرآن وعلومه، ومحيطًا بكثِيرٍ من القراءات القرآنية المتواترةِ وشواذها، مستجمعًا لهاعلى نحوٍ مدهشٍ، ومقتدِرًا على التَّوجيه البيانيِّ لها إلا أنّه لا يستحضِر في ذلك كلّه أنّ الّذي بين يديهِ كلمة الله ﷻ، هو يتعامل مع البيان القرآنيّ تعامله مع أيّ بيان أدبيّ، وقد دعا بعض أهل النّظر في زماننا طلابَ العلم إلى أن يخلعوا من قلوبهم وعقولهم في مدارستهم البيان القرآني أنَّه كلمةُ الله ﷻ وأنْ يتعاملوا معه على أنه بيانٌ عربيّ، فإذا ما فرغوا من تلك المدارسة أعادوا قداسة القرآن إلى قلوبهم وعقولهم .

مثلُ هذا المنهج إنْ أمكن تطبيق النزع والإعادة لقدسية القرآن من العقول والقلوب لا يؤدّي إلا إلى رؤية عقلية للمعنى النّظميّ للقرآن[1].

---

(١) يقول شيخ الأمناء " العربيُّ القُحُّ أو مَن رَبطتهُ بالعربيّة تلك الرّوابطُ يقرأُ هذا الكتابَ الجليلَ ويدرسُه درسًا أدبيًّا كمَا تَدرسُ الأممُ المختلفةُ عيونَ آداب اللغاتِ المختلفةِ.

وتلك الدّراسةُ الأدبيّة لأثرٍ عظيمٍ كهذا القرآن هِي ما يَجبُ أن يقومَ به الدّارسون أوّلاً وفاءً بحقِّ هذا الكتابِ، ولَو لَم يقصِدوا الاهتداءَ به، أو الانتفاعَ بما حَوَى وشَملَ، بلْ هِي ما يَجِبُ أن يقُومَ بِه الدّارسُون أولاً، ولو لَم تنطوِ صدُورُهم على عقيدةٍ ما فيه، أو انْطوتْ على نقيضِ ما يُردِّدُ المِسلمون الّذين يعدُّونه كِتابَهم المقدّس، فالقرآنُ كتابُ الفنّ العربيّ الأقدسُ سَواءٌ أَنَظَرَ إليْه النَّاظرُ كذلك في الدّين أمْ لا.

وهذا الدَّرسُ الأدبيُّ للقُرآنِ فِي ذلِك المُستوَى الفنيّ دُون نَظرٍ إلى أيِّ اعتبارٍ دينيّ هُو ما نعتدُّه وتعتدُّه معنا الأممُ العربيّة أصلاً والعربيّة اختلاطًا مقصدًا أوَّل وغرضًا أبعدَ يجبُ أن يسبقَ كلَّ غرضٍ ويتقدّمَ كلَّ مقصدٍ ...." (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٠الأعمال الكاملة ط: سنة: ١٩٩٥م .ج:١٠ ص٢٢٩-٢٣٠) .

والرّؤية القلبية تقتضِي فوق ما تقتضيه الرّؤية العقلية حسن العلاقة بالله ﷻ ووثيقها، وهي لا تتحقّق للعبد إلاّ بحسن التّربية والصُّحبة الرَّشيدة لأهلِ القرآن .

هي رؤية تستحضِرُ جلال الله ﷻ وجماله في ما هي قائمة فيه . ويكون لها من هذا الاستحضارما يعصمها من الزَّلل والغفلة وما يحملها إلى ما لا يتأتى لغيرها أن يحوم حول حماه من لطيف المعاني ودقيقها وتفعلها في العلاقة بالله ﷻ وبالحياةِ كونًا وإنسانًا.

هذه الرؤية القلب أدراكٌ لحقيقةِ الأشياء الكونيّة وفهمٌ قويمٌ للأنباءِ الغيبيّة التي أنبأ الله ﷻ بها

وقد كثر في القرآن قوله ﷻ (أَلَمْ تَرَ) (أَلَمْ تَرَوا) (ألم يروا) وكلّ هذا إنّما هودعوةٌ إلى الرّؤية القلبيّة المتجاوزة ظواهر الأشياءِ إلى حقائقها. وبهذا يمكن للمرءِ أن يتجاوزَ طور الإنسانية المتشغل بالنّعم عن المنعم، إلى أفق الآدميّة القائمة بإصلاح الحياة كونا وإنسانا، واستعمارها على وفقِ مرادِ الله الشَّرعيّ تزلفًا واحتسابا .

يقُول الله ﷻ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦ ﴾ [سبأ:٦]فهذه رؤية قلبيّة للقرآن كلّه، وهي رؤية دائمة مستمرة متجدّدة للّذين أوتوا العلم، وتبصرْ قوله ﷻ (هُوَالْحَقَّ) وقوله (وَيَهۡدِيٓ

وانظر : مفهوم النصّ : دراسة فِي علومِ القرآن. تأليف : نصر حامد أبي زيد. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة: ١٩٩٣م ص:١٢-١٤،١٣، ٢٧، ٢٩، ٣٠)

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ) كل في القرآن مدارسة لا تنتهي بصاحبها إلى إفعام فؤاده بهذه الحقيقة، وقيامها فتيةً في حركته السلوكية هي مدارسة تنتمِي إلى الرُّؤية العقليّة لا إلى الرّؤيّة القلبيّة.

فهذه الرُّؤية القلبيّة متحققّة لا محالة لِمن تصاعدَ إلى مقام الإحسان في اعتقادِه وسلوكِه، فقد جاءَ فِي بيان النّبوّة ما رواه الشّيخان : في كتاب "الإيمان" من صحيحيهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ عن الإحسان « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . فأعلاه مكاشفة (كَأَنَّكَ تَرَاهُ) وأدناه مراقبة:(فَإِنَّهُ يَرَاكَ) والمراقبة حضور جلال الله ﷻ في القلبِ حضورا يصرفه عن ملاحظة سواه ﷻ . وأهلُ الدُّنيا لهم مع أحبائهم مثل ذلك من المراقبة، لا يرى غير محبوبه وإنْ أحاط به النّاس من كلّ جانب.[(1)].

محصَّل الأمر أنَّ الرُّؤية القلبيّة للمعنى القرآنيّ هي الإدراكُ القلبي لما هو مكنوز من معاني الهدَى الإحسانية في البيان القرآني إدراكًا يتجاوز ما هو معهودٌ

---

(١) يقول ابن رجب الحنبلي :" قال بعض السلف: من عمل لله على المشاهدة فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص. فهذان مقامان: أحدهما: مقام المراقبة، وهو أن يستحضر العبد قرب الله منه واطلاعه عليه فيتخايل أنه لا يزال بين يدي الله فيراقبه في حركاته وسكناته وسره وعلانيته، فهذا مقام المراقبين المخلصين، وهو أدنى مقام الإحسان."(فتح الباري شرح صحيح البخاري تأليف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي ت: ٧٩٥هـ) تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرين. نشر: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية. .ط(١) عام: ١٤١٧ هـ-١/ ٢١١.

وانظر كتاب:" أدب النفس." تأليف: الحكيم الترمذي .تأليف: الحكيم الترمذي : أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر (ت: نحو ٣٢٠هـ) تحقيق أحمد عبد الرحيم السَّايح.نشر: الدار المصرية اللبنانية، مصر .ط(١) عام: ١٤١٣ هـ. ص: ١٠٥

وكتاب " الرسالة القشيرية" تأليف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ) تحقيق: عبد الحليم محمود،و محمود بن الشريف .نشر: دار المعارف، القاهرة.ج/ ١/ ٣٢٩

إدراكه بالعلوم العقليّة المتكسبة الّتي يتقاربُ في تحصِيلها وتفعيلها كثيرٌ . بلْ لابدّ له معها من علوم وهبيّةٍ هي مثوبة حسن العلاقة الإيمانية بالله ﷻ .

وهذا المُدرك من معاني الهدى بالرُّؤية القلبية لا يتيسّر تعليمه وتفهيمه لِمَن لَم يكنْ له مِن هذه الرُّؤية نصيبٌ، وهذا المقام هو مقام "اسْجد واقترب" الَّذي هو رأس المعنى في سورة "العلق" المستفتحة بقوله ﷻ (بسم الله الرَّحمَن الرَّحيم اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (سورة العلق : ٥).

كلُّ إدراك لمعنى إحساني من معاني البيان القرآنيّ يتجاوز قدرة العلوم العقلية الكسبية هو مِن ثمار الرُّؤية القلبيّة لمعاني الهُدَى المكنوزة في البيان، ولذا كانت عواملُ تحقّق هذه الرّؤية للعبد تتجاوزُ الإحاطةِ بالعلوم العقليّة الكسبيّة إلى علوم وهبيّة يثمرها العملُ الصّفاء بما علم من تلك علوم الكتاب والسنّة المكتسبة بالتعليم والتّعلّم.

*** ***

الرؤية القلبية لا تكتسبُ بالتّعليم بلسان المقال وحده، بل تكتسب بالتعلّم الذَّاتي السلوكيّ، وبالتَّعليم بلسان الحال، فمصاحبة أهلِ الله ﷻ الّذين يربون تلاميذهم بلسان حالهم تهيّئ المرء لاكتسابِ درجةٍ من درجاتِ الرُّؤية القلبيّة لمعانِي الهدَى، ولذا كان من منهاج التّربية القرآنيّة الحضورالجمعيّ في العبادات (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (سورة التوبة :١١٩) وما هي معيّة حضور، فحسب بل معيّة تفاعلٍ وتراحب، وترابحٍ .

روى أحمدُ في مسنده بسندِه عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﵁ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَماعَةِ وَالْعَامَّةِ والْمَسْجِدِ».

الاتساعُ بيْن اتساع الرُّؤية واتساع المَعنى.

يتحقّق الاتّساع في كلّ من المعنَى، والرّؤية، أمّا اتساع المعنى في القلبِ فمِن عوامله ملاحظة السّياق والقرائن ومناظرة الآيات ببعضِها، ومناظرة الآيات بالأحاديث النّبويّة في الباب، ولا أريد بالاتساع مفهموه عند "سيبويه" وعلماء العربية الّذي من صوره "المجاز" والتّضمين" بل أريد أن المعنى غير منحصر في منطوق الآية، وفيما يدلّ عليه السّباق والّلحاق، فكثيرٌ من الآيات القرآنيّة لها معنى متعيّن بسباقها ولحاقِها، ولكنّها صالحة لأنْ تؤخذ من هذا السّباق والّلحاق، فتضحَى كالمثل الّذي يقام في سياقات عدّة لا تتعاند مع سياق التّلاوة، وما يجري مجرى الأمثال في القرآن كثيرٌ نضيرٌ.

أمَّا اتساع الرّؤية فهو مُمارسة في البيان، هو اقتدارُ القلبِ على أن يرَى فيضًا من المعاني المكنوزة في الآية في سياقِها، فكلّ آية يمكن للقلب الشّهيد أن يرَى اتساع المعنى فيها، ذلك أنَّ القرآن جميعه إنّما هو من جوامع الكلم.، فاتساعُ المعنى مرجعُه إلى شأن البيان، واتساع الرّؤية القلبية مرجعه إلى حال قلبِ المتدبّر.

وممَّا اجتمع فيه الأمران معًا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢﴾ [الأعراف: ٢٠١ – ٢٠٢]

فنسق الآيتين وسياقهما يجعلُ المعنى وسيعًا لا يليقُ بذي بصرٍ أن يقف عند معاني منطوقها، والطّبقات الأولى من معنى المعنى بل إنْ هو تلبث متدبرًا رأى فيها من فيوض المعاني ما يجعلهما من قبيل "إيجاز القصر"

وقد كان ابن عطاء الله السكندري(ت: ٧٠٩هـ) في كتابه"التنوير في أسقاط التدبير" من اتساع رؤيته القلبية ما هو مكنوز فيها وفي غيرها من الآيات من معاني الهدَى ما يحسن أن تتخذه منارًاعلى الطّريق [١].

ولابن القيّم قدم عَلِيّة في هذا الباب على ما تراه في كثير من آثاره، ولا سيما كتابه" الفوائد" فهو ممَّا يعلم اتساع الرّؤية القلبية لمعاني الهدَى المكنوزة في البيانِ القرآنيّ .

***   ***

عوامل اتّساع الرّؤية القلبيّة بيْن التّزكية والتذكية وعوائقها .

لاتساع الرّؤية القلبيّة للمعنى القرآنيّ عوامل بعضها كسبيّ يعلّم، وبعضها وهبيّ مترتبٌ على الكسبيّ . ولا يلزمُ من تحقّق ما هو كسبيّ تحقّق ما هو وهِبيّ، كما أنَّه لا يتحقّقُ ما هو وهبيّ إلا بتحقّق ما هو كسبيّ فالكسبيّ شرطٌ لتحققُ الوهبيّ .

العوامل الكسبية :

العوامل الكسبية منها ما هو ثمرة تعليم وتدريبٍ منهجيّ، ومنها ما هو ثمرة تعلم ذاتيّ تطبيقيّ سلوكيّ.

---

(١) التنوير في إسقاط التدبير تأليف أبن عطاء الله السندري: أحمد بن محمد بن عبدالكريم (ت:٧٠-٩هـ)تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول. نشر المكتبة الأزهرية للتراث. سنة ٢٠٠٧م. .ص:٥٧ وما بعدها .

عقد البخاري الباب العاشر من كتاب"العلم"من صحيحه صدره بقوله:" باب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ . لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله) فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ – وَرَّثُوا الْعِلْمَ – مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ . وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وَقَالَ (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ). وَقَالَ (هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) . وَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ » . وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ عَلَى هَذِهِ وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ – ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّى أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِىِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَىَّ لأَنْفَذْتُهَا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) حُكَمَاءَ فُقَهَاءَ. وَيُقَالُ الرَّبَّانِىُّ الَّذِى يُرَبِّى النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ. " فهذا دالٌّك على أنّه لا يتأتّى لأحدٍ أنْ تتّسع رؤيته القلبيّة لمعاني الهدى، وهو لم يسلك سبيل التّعلم على أعيان أهل العلمِ، فإنّ العلم بالتّعلم والفقه بالتّفقهِ، فمن اتخذ نفسه شيخًا له، فإنّما هو السالك سبيل الضلالة.

***   ***

= لعلّ أوّل ما يعنَى بتحصِيله لاكتساب الرّؤية القلبية تحصبلُ كثير مِن العلوم المعينة على تجاوز المعنى الجمهوريّ، ولا سيما علوم العربية، فإنّ الله ﷻ إنّما خاطب العباد على معهود العربِ في الإفهام والفهم، والقرآنُ وإن كان كتابَ كلِّ زمانٍ ومكان وإنسان أيًّا كان اسانه فإن الله ﷻ يقول : (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (سورة القمر: ١٧) ومن عوامل هذا التيسير أن

جعله بلسان سيدنا رسول الله ﷺ (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(سورة الدّخان : ٥٨) فهذا آيةٌ على أنّ اصطفاء هذا الّلسان إنّما كان لِما فيه مِن الاقتدار على أن يمنحَ العليم بِه من اتّساع رؤيته القلبية لما في هذا البيان القرآنيّ من معاني الهدي، لما تتسم به العربية من خصائص الإبانة والإفهام ما ليس لغيرها من ألسنة البشر. فكان السَّعي إلى العرفان بمذاهب الإبانة بها إفهامًا وفهمًا عاملاً رئيسًا من عوامل اكتساب هذه الرّؤية القلبيّة، وقد هدَى الشّافعيّ إلى أنَّ لسان العرب مِن أكثر الألسنة ألفاظًا، وأوسعها مذهبًا.

يقول:" ولسانُ العرب: أوسعُ الألسنةِ مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمُه يحيط بجميع علمِه إنسان غيرُ نبيّ، ولكنّه لا يذهب منْه شيْءٌ على عامتها، حتَّى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه. والعلمُ به عند العرب كالعلمِ بالسّنة عند أهل الفقه، لا نعلمُ رجلاً جمع السّنن، فلم يذهب منها عليه شيءٌ.... وهكذا لسانُ العرب عند خاصتها وعامتها. لا يذهب منه شيْءٌ عليها، ولا يُطلب عند غيرها، ولا يعلمُه إلا من قَبِله عنها، ولا يَشرَكها فيه إلاّ من اتبعها في تعلّمه منها، ومِن قبله منها فهو من أهل لسانها." [(١)].

وقد عني ابن جنّي (٣٩٢هـ) بالإبانة عن خصائص هذا الّلسان العربيّ فِي بناءِ كلمِه مِن جهة، وفِي بناءِ كلامِه على امتدادِه من أخرى، وكأنَّه كان يفَصّل لنا مقالة الشّافعيّ . ليس هذا فحسبُ بل عُنِي ببيانِ خصائص العربيّة فِي أصواتِها بكتابِه "سر صناعة الإعراب" وهو الكتابُ الّذي أقامه لدراسة خصائص الحروف العربيّة، وكان في تسميته الكتاب " سر صناعة الإعراب" ما يهدِي إلى أن في

(١) الرسالة، للشافعيأتحقيقأحمد شاكر. نشر: مكتبة الحلبي القاهرة ط(١) عام: ١٣٥٨هـ ص:٤٤.

أصواتِ الكلمة إعرابًا عن معانٍ قد تعجز المعاني الوضعيّة للكلمات عن حملها، وكذلك تعجز ضروب النّظم للكلام عنها، ممَّا تحمله الأصواتُ على نحو لا يُطيق تبصره إلا مَن كان حُوذِيًّا خِرِّيتًا في لسان العربيّة، وقد سعى الأستاذُ الأكبر محمود محمد شاكر ـ رحمه الله ـ إلى أن يستكشفَ معاني حروف المباني، في سبع مقالات انقطع بعدها عن القول فيها لأمرٍ لا نعلمُه، وكأنَّه يقول إنّ حروفَ المبني لها معانٍ قائمة من أصواتِها، فإذا عرفت معنى الحروفِ الّتي بُنِيت منها الكلمة أمكنك أنّ تدرك أصل المعنى الّذي وضعت له الكلمة، كما أنّ حروف المعاني لها معاني قائمة من مواضعاتها. كذلك حروف المباني لها معانٍ قائمة من أصواتِها، ولعلّ هذا ما يمكنُنا أن نفهمَ وجهًا من الحكمة النّبوية في قوله ﷺ : «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ » . وَزَادَ غَيْرُهُ « يَجْهَرُ بِهِ » . رواه البخاريّ في كتاب "التّوحيد" من حديث أبي هريرة ﷺ . وقوله ﷺ : « زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » .
(رواه أبو داود في كتاب "الوتر" من سننه من حديث البَراءِ بنِ عازب)، وهذا التّغني والتّزيين إنّما عمود الأمر فيه التّفنن في الأداء المصوّر للطيف المعاني الّتي تعجزُ الكلم بمواضعاتها الّلغوية، والنّظم بأنماطِه عَن حمله إلى الأفئدة . وهذا كلُّه مِن العلوم الّتي يفتقر إليها أهلُ العلم لتحقيقِ اكتسابِهم الرؤية القلبيّة لمعاني الهُدَى.

مجملُ الأمرِ أنَّ كثرة الألفاظ واتساع المذاهب في الإبانة يجعل مسؤولية المتدبّر عظيمة في أن يكونَ مقتدرًا على أن يصطفىَ الوجه الأمثل الّذي به يتجلى العطاء الأكرم من معاني القرآنيّ، فقد تصحّ وجوه عدّة مِن التَّأويل من حيثُ العربيةُ، إلا أنَّ ثمَّ ما يُعلِي وجهًا على وجهٍ، فالتَّقارب صحة إعرابية لا

يعني التَّقارب صحةً تأويلية، فكمْ مِن وجهٍ يجوزُ عربيّة هو القليلُ عطاؤه بينا غيرُه هو الأوفرُ، بل إنّ مذاهبَ القطع والائتناف وإن صحتْ معنى، وعربية، فإنَّ بعضًا يعلو بعضًا مِن حيثُ علو المعنى ألا ترَى أن قوله ﷻ : (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) يستقيم عربية أن تقفَ على آخر قوله (فيه) كما يستقيمُ عربيّة أن تقفَ على آخر قوله: (ريب) بينا الوقف على آخر قوله: (فيه) أوفرعطاء وأجزل. وكذلك قوله ﷻ : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ) لك عربيّة أن تقفَ على آخر قوله (ربّه) ولك عربيّة أن تقفَ على آخر قوله: (المؤمنون) ولكلّ من العطاء ما ليس للآخر. فإن أردتَ أن تجعلَ إيمانَ رسول الله ﷺ بما أنزل إليه من ربه ﷻ فريدًا في كيفيته ومقدارِه كان الوقف على آخر قوله تعالى :(ربّه) وجعلت قوله : (المؤمنون) وما بعده معطوفٌ على أول قوله (آمن) وإن شئت أن تجعل إيمان المؤمنين من إيمانه ﷺ وقفت على آخرقوله (المؤمنون) وجعلت قوله (كلّ) جامعًا النبيّ ﷺ والمؤمنين) فلكلّ عطاؤه

وهكذا تجدُ عطاءات الجواز في مذاهبِ الإبانة عربيّة تتفاوت فبعضها أرفع وأجزل، ممَّا يجعلُ القلب الرَّشيد المتّسع الرّؤية هو ما كان المتضلّع بمذاهب الإبانة بلسان العربيّة المقتدرعلى أن يصطفِي ما هو أَليق، وأوفر عطاءً.

وهذا حملٌ جدّ ثقيل، ولا يكتفَى فيه بالتّعليم تلقينًا، بل لا بدّ فيه مِن المدارسة، ومن التّعلم الذَّاتيّ المتمرّسِ بالتّفكر والتّبصّر .

*** ***

= ومن عوامل اتساع الرّؤية الّتي قد يغفل عنه غيرُ قليل استحضار الآيات المناظرة لما هي مناط التّبّصّر تدبرًا لما بيْن هذه المناظرات مِن تصريفٍ للمعاني تَصريفًا يفضِي إلى اتّساع المعنى نظمًا أو سياقًا، فالمعنى حين تردّ صورتُه في سياقين على نمطٍ متطابقٍ نظمًا مختلفٍ سياقًا، فإنَّ المعنى القرآنيّ لا يكون متطابقًا في السّياقين، ذلك أنَّ للسّياق سباقًا ولِحاقًا أثرًا في تكوين المعنى وتشكيلِه في القلبِ الرَّشيد، ومِن ثَمَّ لا تستقيمُ الإحالةُ في التَّأويل آية لاحقة إلى ما قيل في آية سابقة تطابقها نظمًا، فالإحالةُ حينئذٍ لن تتناولَ إلاَّ المعنى الْجمهورِيّ "معنَى المنطوق" أمَّا المعنى الإحسانيّ، فما في الآية الَّلاحقة ليس هُو هو ما في الآية السَّابقة المطابقة لها نظمًا.

وهذا ما بعث ثلّة من أهلِ العلمِ إلى القولِ بأنَّه لا تكرارَ في القرآن تكرارًا تتطابق فيه الآيات أو الجمل تطابقًا تامًا، بل لابدَّ مِن فروقٍ قد لا يكون مناطُها معنى المنطوق، وإنّما مناطُها ما وراءه : "المعنَى الإحسانيّ" وهذا حقٌّ أُؤمِن به وأدعو إليْهِ، وقد كان الإمام برهان الدّين البقاعيّ (ت:٨٨٥هـ) لا يرَى أن معنى " البسلمة" مثلاً في أوّل كلِّ سورة هُوَ هُوَ في أوَّل سورةٍ أخرَى، ولذا كان يحرِصُ عَلى أن يُفسِّر الأسماء الثَّلاثة : " الله – الرّحمَن - الرَّحيم " بما يتلاءمُ مع موضوع السِّورة ومغزاها، وأصل هذا النَّهج مسبوقٌ إليه على نحوِ ما نراه عند عصريّ عبد القاهر الجرجاني: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ) في كتاب "لطائف الإشارات" وإن تباينت الطريقة التّأويليّة بيْن "لقشريّ" و"البقاعيّ"، وكانت طريقة "البقاعيّ" أقرب إلى الموضوعية، وأكثر ظهورًا،وأقرب تلقيًّا .

*** ***

وكلّ علمٍ يؤدّي إلى العرفان بِمنهاج الإبانة والإفهام لبيان الوحي قرآنا وسنة هو عمودٌ من عُمُد العوامل التي تحقق للعبد شيْئًا من الرّؤية القلبية إن جمع إليها شيئًا وفيرًا من حُسن التّخلق بما تحمله تلك العلوم من محاسن الأخلاق مع الله ﷻ ومع الحياةِ كونًا وإنسانًا . ومن حسن التّخلق ديمومية الفكر والتبصر فيما يتاقله القلب عن طريق السمع والبصر (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (سورة الإسراء:٣٦) فالعلوم والمعارف المكتسبة إنّما تفعل في المرءِ بحسن التَّفكر والتَّبصّر لا باكتنازها فيها، واستدعائِها عَن الحاجة. هِي طعام القلوب، ولا يستقيمُ اختزان الطَّعامِ، بل حقُّه أن يستحيلَ إلى قوَّة بها تتحقَّق الحركة الإيجابيّة المستعمرة الحياة كونًا وإنسانًا. كذلك العلوم والمعارف، وإلاّ كان حاملها ذا نصيب ممّن يصفهم الله ﷻ في قوله : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾ [الجمعة:٥].

ما مِن عِلم من علوم كتابِ الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وبيانهما إلاّ وحسنُ تلقيه فقهًا وفهمًا عاملٌ من عوامل اتّساع الرُّؤية القلبيّة المعنى القرآنيّ، وهذه العلوم لا تفعل في الرّؤية القلبيّة اتساعًا، إذا ما اكتفي بفقه فقهًا ورقيًّا ولم يترقّ صاحبها إلى الفقه الحركيّ، فتستحيلُ فعلاً يرَى بعد أن كانت كَلِمًا يُسمع.

إنّ إحالةَ المقروءِ والمسموع إلى مشهودٍ قائمٍ في حركة المرْءِ هي الّتي تجعل مِن تحصيل هذه العلوم عاملاً من عوامل اتساعِ الرّؤية القلبية المعنى القرآنيّ.

كمْ من محيطٍ بمقالات أهل العلم في تلك العلوم مكتنزها في عقلِه لا يَأْذَن لها أن تستحيلَ واقعًا في سلوكه هو المحروم مِن اتساع رؤيته القلبية معاني الهدَى في القرآن .

وهذا ما تراه في كثيرٍ من التّأويلات الشَّاحبة لآياتٍ من كتابِ الله ﷻ فلا تكادُ تشعر أن الَّذي بيْن يديك تأويلٌ لآية من كتابِ الله ﷻ، فليس كلُّ ما جاز عربيّةً جاز تأويلُ بيان الوحي عَلَيْهِ .

إن تكن الإجازة اللغوية شرطًا فإنَّها ليست وحدها المشروطة، بلْ من شرائط صحة الأخذ بها أن يكون ذلك الأخذ متلائما مع مقام المتكلّم بذلك البيانِ، ولذا تسمع الحقّ ﷻ يعرّفنا بنفسِه في أوَّل سورة "أم الكتاب" ثمّ يعرفنا بكتابه في أوّل سورة "البقرة" كيما نتخذ من هذين النّبأين ضابطًا نضبط به ما تأذنُ العربية الأخذ به في فقه هذا البيان وتلقّيه .

لَن تتسع رؤيتك القلبية المعنى القرآني إذا ما اكتفيت بأن تسكن أنت في النَّصّ، فينطق لسان مقالِك بِه، ولم تتجاوزَ إلى المرحلة الأعلى : أن يسكنك النّصّ، فينطق لسان حالِك بِفعله فيك . لا يمكن لقلبك أن تتسع رؤيته المعنى القرآنيّ إذا ما كان البيانُ القرآنيُّ خارجك أي أن تكون حركة رؤيتك إلى ما هو خارجك. هي تتسع إذا ما كانت حركتها إلى داخلك إلى النَّصِّ وهو يقوم فيك ويقِيم لا في قراطيسِك.

بقاءُ البيان في قراطيسِك لن يُحقّق الرّؤية القلبية له. فالقلب لا يرَى ما هو خارجه، هو يقصر رؤيته على ما هو مقيمٌ وفاعلٌ فيه. والبيانُ لن يقيم فيك إلا إذا أحلت فقهك له من فقة ورقيّ إلى فقه حركيّ، وذلك هو"حقُّ التِّلاوة".

حقُّ التِّلاوة ليس هو تحقيق حروفه في لسانك وسمعك، فحسب، حقُّ التّلاوة هو تحقيق حدوده ومعانيك في سلوكك، فكم من مجيدٍ الإحاطةَ بوجوه قراءاته المتواترة والشّاذة وأنماط التَّغنّي المدهشة هو من تحقيق حقِّ التِّلاوة جدُّ بعيدٍ.

وقد هدَتْ أمُّ المؤمنين سيدتنا عائشة رَضِي الله عنها إلى المعنى القويم لحقّ التِّلاوة حين أجْملت صفة خلق رسول الله ﷺ بقولها : "كان خلُقه القرآنَ" وهي عبارة مفسّرة النَّبأ القرآنيّ عن ذلك : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (سورة القلم:٤) ففي اصطفاء "على" و"عظيم" فيضٌ من المعاني الّتي تعجز أفئدة البشر عن أن تحيط بها، ولا سيما إذا ما استحضرنا أنَّ الَّذي يصفُ خلقَه ﷺ إنّما هو الله العليُّ العظيمُ، ومدلولُ الصّفة يستمدّ قدرَه من الواصفِ بها. فاستحضارُ هذا يمنحُ الرُّؤية القلبيّة اتساعًا لا حد له. وهذا أصلٌ مكين في فقه الصفات الّتي يصف الله ﷻ بها الأشياء وصفًا حميدًا أو ذَمِيمًا .

ومثل هذا إنَّما طريقُ تحقيقِه التَّعلّم بالقدوة، لا التّعليم بالتّلقين، فشيخُك من علَّمَك بلحظِه لا بلفظِه .

وقد كان من الأعيان اعتناءٌ بليغ ببيان أخلاقِ أهل القرآن وحلية طلاب العلم بِه على نحو ما تراه من صنيع أبي بكر الآجُرِّي : محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي (ت: ٣٦٠هـ) في كتابه " أخلاق أهلِ القرآن[١]".

---

(١) حبذا تقرير كتاب "أخلاق القرآن" للآحري أو نحوه على طلاب كالجامعة ولا سيّما طلاب الكليات العلوم الإسلامية في الفصل الأول من العام الجامعي الأول لهم. دراسة تحليلية سلوكية بحيث يؤسس أمرهم على ما جاء به هذا الكتاب ونحوه. وهو أولى عندي من غير قليلٍ ممّا تحشَى به عقولهم.

ومَن أحاط بطرائق التّرتيل والتّغني، ولم يكن القرآن قائمًا في سلوكه، فذلك مِن الّذين قال فيهم سيدنا رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَكْثَرَ مُنَافِقِى أُمَّتِى قُرَّاؤُهَا ». رواه أحمد في مسنده من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضيَ الله عنهما

*** ***

= ومن أهم العوامل المعينة على اتساع الرّؤية القلبية للمعنى القرآني أن يعرف المرء قدر ما معه من النّعمة : نعمة العلمِ بكتاب اللهﷻ، فتلك من أجلّ النّعم من بعد نعمةِ الإيمان بالله ﷻ، فقد أنبأ سيّدنا عبد الله بن عمروبن العاصِ رَضِيَ الله عَنهما أن " من أوتي القرآن فظنّ أن غيرَه قد أوتِي خيرًا منه فقد حقّر ما عظّم الله تعالى" .

روى عبد الله بن المبارك في كتاب"الزّهد " بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضِيَ الله عنهما موقوفًا قَالَ: « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدْ أُدْرِجَتِ النُّبُوَّةُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ، وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ، فَقَدْ حَقَّرَ مَا عَظَّمَ الله، وَعَظَّمَ مَا حَقَّرَ الله، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجْهَلَ فِيمَنْ يَجْهَلُ، وَلَا يَحِدُّ فِيمَنْ يَحِدُّ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ »(١). ورواه البيهقي في شعب الإيمان : أثر رقم(٢٣٥٢) (٢).

---

(١) قوله يحد فيمن يحد أي يغضب وينزق فالْحِدَّةُ مَا يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنَ النَّزَقِ وَالْغَضَبِ.

(٢) الزهد والرقائق . تألبف أبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك (ت: ١٨١هـ) تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. ص:٢٧٥.

إنَّ الشّعورَ بجلال هذه النّعمة يورث استثمارها في السلوك لتكون هذه النّعمة مشكورةً شكرًا يحفظها ويزكّيها ويُذْكِيها.

والشُّعور بجلال هذه النّعمة يصرف النّفس عن أن تتشوف إلى ما في أيدي أهل الدّنيا، فترى من جليل النّعمة أنَّها لم تشغل بمثل ما شغلوا به، فتكون أشرفَ من أن تتطلع إليْه فضلا عنْ أن تتطلبه .

وإنَّ مَن تحقير هذه النّعمة أن تطلب بها الدُّنيا، وأهلها، فمن عرف قدر ما معه من القرآن لا يتخذه قط سبيلاً إلى اكتساب عرضٍ من الدُّنيا، ولا يتشوَّف إلى أن يقرأه بيْن يدي الأمراءِ، ولا يرى أنَّه إذا ما طلب منه ذلك قد أكرم، ولا يضيق صدره أنَّه لم يدعَ إلى ذلك ودُعِي من هو دونه أو قرينه، فمن فعل، فإنّما هو المُبتلَى لما قد يقع في نفسِه مِن العجبِ، والتَّزلّف إليْهم والسُّكوتِ على ظلمهم. ومن لم يشهد معصية وعلم بها فرضِيها أو لم يتبرَّأ منها ومن مقترفها، أو سكتَ عنها غير مكره، فهو كمن اقترفها سَواءً بسواء .

وكلُّ ذلك عائقٌ من عوائق اتساع الرُّؤية، فالحقّ أنَّ من اتخذ المِزمار سبيلاً إلى الدّنيا كان خيرًا ممّن اتخذ القرآن لذلك إن أعطي منها به رضيَ، وإن لم يعط سخط، وما قَرَأ وماعلّم؛ لأنَّه اتخذ جليلاً سبيلاً إلى حقيرٍ، وتلك هي السَّفاهة التي لا تطاق .

*** ***

= ومن عوامل السلوكية لاكتساب اتساع الرؤية طيب المطعم، فإنَّ عبدًا لم يكن مطعمه صفاءً مِن الشبهة لهو أبعدُ ما يكونُ أن يتلقّى قلبِه شيئًا من معانِي

الهدَى، فتلك المعاني أعزّ على الله ﷻ من أن يُسْكِنَها قلبًا غير صفاءٍ، فحريٌّ بأهل القرآن ألا يكون مطعوم أجسادهم غير متسقٍ مع مطعوم قلوبهم : القرآن .

وقد يشتبه على المرء ما هو طيبٌ وماهو خبيث وَفْق رُؤًى فقهيّة تسعَى إلى التّيسير المفضِي إلى التّسهيل أحيانا، وأهلُ القرآن حرًى بهم ألا يأخذوا بما يفتي به بعض أهلِ الفتوَى في زمانِنا للعامة مِن القول بحلّ بعض التَّصرفاتِ الماليّة ،لأنَّ هذه التّصرفات لَمْ تكن زمان الوحي، وكأنّ كلّ ما لم يكن في زمانِ الوحي هو في زمانِنا حلالٌ، وهذا مِن الغفلة على أقل تقديرٍ، فالوحي لما كان لكل عصرٍ ومصر وإنسان أيا كان لسانُه جاء هديه حلالاً وحرامًا وإباحة على نسق البيان الكليّ الّذي لعلماء كلّ عصر ومصر أن يستولدوا من هذا الكليّ ما يجمع بين الهدَي الإلهي وما يتواءم مع حال الزَّمان والمكان والإنسان دون تعاندٍ .

أهلُ القرآن يجعلون بينهم وبين الشبهة سبعين بابًا من الحلال اليقين، فإنّ من أتى على ما يحلّ له وقع لا محالة فيما حرم عَلَيْهِ، وأحقُّ العباد بالأخذ الوثيق بقول رسول الله ﷺ: « إِنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِى الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِى الْحَرَامِ ... » ولا سيّما في ما يعلق بالمطعم، وما إليْه..

وقد ورد في أثر موقوفٌ : « مَنْ أَصَابَ مَالًا مِنْ مَهَاوِشَ أَذْهَبَهُ الله فِي نَهَابِرَ» وأقل " النهابر أن يشغل وقته بإنفاقهِ ، وهذا من الغبن الذي يتقّيه أولو الألباب.

*** ***

ومن العوامل السّلوكية لاكتساب اتساع الرُّؤية القلبية التَّحاجز عن مخالطة الدَّهماء إلاّ لضرورة، فإن مخالطتهم، والانشغال بهم وبما هم فيه سادرون

يُحاجز المرءَ عن اكتساب تلك النّعمة : نعمة اتساع الرّؤية القلبيّة لمعاني الهُدَى في القرآن، فإنَّ أحوال الدّهماء ولا سيّما في زمانِنا هذا مُظلِمةٌ للقلوب لِما يعتريها من اللّغط والغلط والتَّجاوز المقيت في الأقوال والأفعال والأحوال، ومشاهدة ذلك ممَّا تصدأ بُه القلوب فكيف بمقارفته.

وقد جاء في الحكمة أنّه "ما نفع القلب شيْءٌ مثل عزلةٍ، يدخل بها ميدان فكرة، " وما هذه بعزلةأجساد، إنّماهي عزلة أفئدة عن الدّنيا وأهلِها، وإن أقام فيهم قيام الطبيب في مجمع المرضَى (١).

*** ***

ومن العوائقِ السّلوكية لاكتسابِ اتساع الرُّؤية القلبية تعلّقُ النفسِ بمظاهر التَّرف العمراني وما إليْه، وطلبِها وإن كانت من طريقٍ مشروعٍ صرفٍ،

فممَّا يؤخذ من قول الله ﷻ لرسوله ﷺ لأمته : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ ﴾ [الحِجر:٨٧ -٨٨]

يفهمُ من هذا البيان أنَّ من أوتي القرآن حقٌّ عليْهِ الاَّ يمدَّنّ عينيه إلى شيْءٍ من متاع الدُّنيا، فمن قصد البحر استقلَّ السواقيا. فأهل القرآن مشغولةٌ قلوبهم باستعذاب نعيم الجنّة الَّتي أقيموا فيها فصدقوا، فقامت فيهم : إنما جنة القرآن .

---

(١) مما يحسُن بطالب العلم بكتاب الله ﷻ أن تكون له مخادنة بمثل كتاب : "العزلة "لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) ونحوه من كتاب: العزلة والانفراد لابن ابي الدنيا: ابي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي (ت: ٢٨١هـ) ففي ذلك ما يعينك على أن تنعزل عن الدهماء تفكيرًا وخلقًا،وإنْ أقام فيهم جسدك آمرا بمعروفٍ وناهيا عن منكر بلسان حالك أولا ولسان مقَالك ثانيا.

فمن شغلت بصيرته بالحق عمي بصره عن الباطلْ . ولا يشغلُ البصر بالباطلِ إلاَّ من فراغ البصيرة مِن الحقّ .

دلَّ بيانه ﷻ على أنّهما لا يجتمعان: القرآن وزهرة الحياة الدنيا .

روى الشيخان : البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رضِيَ الله عنْها قَالَتْ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى خَمِيصَةٍ لَهُ لَهَا أَعْلاَمٌ، فَنَظَرَ إِلَى أَعْلاَمِهَا نَظْرَةً، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ « اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِى هَذِهِ إِلَى أَبِى جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِى آنِفًا عَنْ صَلاَتِى، وَائْتُونِى بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِى جَهْمِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ غَانِمٍ مِنْ بَنِى عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ » .

في هذا من الهدَى لأهل القرآن أن يتحاجزوا عن كل ما يشغلهم عن الله ﷻ وعن كتابه، وإن كان مباحًا . فإن استحصاد المباحات قد يفض بالنفسِ إلى أن تحوم حول المكروهات فكيف بالمحرمات؟ فإنت أن حرمتهامن بعض المباحات على تنوعٍ شغلتها عن أن تتطلع إلى ما وراء المباح، وذلك من سياستها وترويضها، فإنَّها جدّ حرون..

وقد شُغل غيرُ من أهل القرآن في زماننا بمحاولة الجمع بين القرآن وزهرة الحياة استئناسًا بقول الله تعالى : ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: ٣١ -٣٢]

ولو أنَّهم استحضروا قوله: " كلِّ مسْجد" أوقوله :" زينة الله" فهاتان دالَّتان على أنَّ كلّ زينةٍ شغلتك عن ربّك ﷻ فما هي من زينة الله ﷻ الّتي حثّ على

أخذها. وفي المناداة عليهم بقوله (يابني آدم) معنَى يستحضر ما يجب أن يكونَ عَلَيْهِ مَن كان أبوه نبيًّا خلقه الله ﷻ بيديه، وعلَّمه الأسماء كلها، وأسجد له الملائكة تحية وتشريفًا، لا تقديسًا، وفي التذكير باسم "آدم"ﷺ استحضارٌ لمعنى" الإصلاح" فهو اسمٌ مشتقٌ من الأَدَم ،بمعنى "الإصلاح" من كان ذلك أباه أيليق به أن يتخذَ مِن الزّينة ما يشغلُه عن ربّه ﷻ أم يتخذ منها ما يوثق علاقته به ﷻ ؟ أليس في أسم أبينا ما يذكّرنا دائمًا برسالتِنا الإصلاحيّة، وأوَّل ذلك إصلاح أفئدتنا ونفوسنا، وإصلاح علاقتنا بربّنا ﷻ، وإماطة الأذَى عَن طريقها إليْهِ ﷻ.

لم يقل : يا أيّها النّاس أو يا أيّها الّذين آمنوا. اصطفَى ما يُقيم في صدورهم الضَّوابط العواصم لاتخاذهم زينتِهم .(يا بني آدم) ولذا كان قوله: (زينتكم) أي حال كونكم أبناء "أدم" ﷺ تذكرًا وتأدبًا.

وهذا لا يعنِي أنّي أدعو أهلَ القرآن إلى البذاءة منظرًا ومسكنا ومركبا ومطعما، كلاَّ، إنَّما أحاجزهم عن أن تشغلهم زينة الحياة الدّنيا وإن كانت من حلال، أن يأنسوا بها، وينسوا المنعم بها ﷻ، وأهل الفضل لا يستوفون كلّ ما أحلَّ لهم اعتصامًا من الانشغال بالمباح عن الواجب والفريضة. فهم يأخذون من الدّنيا وزينتها على قدر حاجتهم منها . فحلالها حسابٌ وحرامها عقابٌ .

روى مسلمٌ في كتاب"الزَّكاة"بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ـ رضيَ الله عنْهما ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ الله بِمَا آتَاهُ ». والكفاف ما يكفّ نفسَك السّويةَ عن أن تطالبك بما لا نفعَ لها فيه في مسيرها إلى ربّها ﷻ .

وما قلت هذا صدًّا للنَّاس على أن يكونَ المال الصَّالح في أيمانهم، كيف وقد جاء في ما رواه أحمد في مسنده من حديث عَمْرَو بْن الْعَاصِ ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال له :

« يَا عَمْرُو نَعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ ».، وإنّما أردت أن أحاجز أهل القرآن عن التنافس في جمع المال بالقرآن على ما نراه من معلمي القرآن ومن قرائه، وأردت ألاَّ يكونوا ساعين إلى أن يتشبَّهوا بأهل الفسوق من حولِهم، وأنْ يتباهوا بارتفاع جُعلِهم إن علَّموا أو قرأوا. فذلك إن كان إنّما هو معرَّة المسير والمصير.

*** ***

ومن العوامل السلوكية الّتي يكتسب بها اتساع الرُّؤية القلبية الفرارُ من الاشتغال بلغو الكلام، وثرثرته فيما لا يُرفد المشتغل بها بما يفيده في مسيره ومصيره، فذلك ممّا جهلُه لا يفضِي إلى خسرانٍ، وكم من معارف تشغل بها عقولنا، ولا يكتسبُ العبدُ منها إلا خسارة وقتٍ، فغير قليلٍ في زماننا ممن اتخذوا قراءة القرآن تجويدًا شغفوا بمدارسة ما يسمّى بالمقامات الموسيقية، ولإجادة التنقل، ممّا حمل السامعين إلى الانشغال بها، عن تفقه المعنى القرآنيّ، فبات الاستماع إلى كتابِ الله تعالى يتلى مجودًا كمثل الاستماع إلى غيرِه، ومثل هذا يجعل صاحبه ذا نصيب من قول الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٦] فمن صورالصرف عن آياته الصرف عن

الاشتغال باستنباط ما هومكنوز فيها من معاني الهدَى، واستطعامها، فاذا ما كان الله ﷻ لا يرضَى بأن يكون له شريك يعبدُ معه، فإنّه لا يرضَى لقلوبِ أهل القرآن أن يكونَ فيها ما يشارك كتابه فيها، وكلّ علمٍ لا يفضِي إلى مزيد عرفانٍ بما فيه من معانِي الهدَى هو علمٌ نبيذٌ غيرُ مسْتحمدٍ، فكيف إذا ما كان من لغو الكلام وباطلِه ؟.

روى التّرمذيّ في فضَائل القرآن من جَامِعِه بسنده عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ وَفَضْلُ كَلاَمِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلاَمِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ». (ضعفه الألبانيّ من جهةِ "عطية العوفيّ").

وقد قال بعضُ العارفين بالطريق إلى الله ﷻ : " كيف يُشرِقُ قلبٌ صورُ الأكوانِ منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله، وهو مكبل بشهواته؟.

أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟.

أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار، وهو لم يتب من هفواته؟.

فهذه بالغة النّجاعة لمن فكّر وتبصّر، فانشغال الفؤاد بمتاع الحياة الدنيا وأهلها ممّا يضعف طاقات التلقّي عن الله ﷻ فقهًا وفهمًا، فاتقاء هذا بعزل الفؤاد عن مصاحبة لعلع الدنيا وزخرفها معين على أن يكونَ الإبحار في قماميس التفكر والتبصر المفضي إلى الارتقاء إلى علم اليقين المفضي إلى مقام عين اليقين.

*** ***

ومحصّل القول ما قاله الإمام الغزّاليّ في كتابه "الإحياء": أعمال الباطن في التّلاوة عشرة:" فهم أصل الكلام، ثمّ التّعظيم، ثمّ حضور القلب، ثمّ التدبّر، ثمّ

التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التّخصيص، ثم التأثر، ثم التّرقي، ثم التّبرّي"[١].

وتفصيل هذه العشر والبحث عنها في مسلكنا مع القرآن مما هو فريضة على طلابِ العلم بكتاب الله تعالى وأهلِه، والسّعي إلى مدارستها ممَّا لا يرغبُ عَنه إلا من رغب في غبن نفسِه . ولو أنَّا جعلنا لكلّ واحدٍ من هذه العشرة مجلسَ مدارسةٍ بيْن الأعيان من طلاب العلم وأهلِه أسبوعيًّا لكان مِن ذلك ما يحدث تغييرًا جوهريًّا في مسلكنا مع كتاب الله ﷻ .

روى النّسائي وابن ماجه في سننهما بسندهما عَنْ جَسْرَةَ بِنْتِ دَجَاجَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ ﷺ يَقُولُ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا وَالآيَةُ (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(المائدة:١١٨).

هذا التّرديد ليلة لا يكون إلا إذا ما كان له في كلّ مرّة من المعنى ما لم يكن له في الّتي قلبها، فالرؤية القلبيّة لما في الآية من معاني الهُدَى متّسعة متجدّد عطاء الآية لها.

وقد حكي عن أبي سليمان الدّارانيّ أنّه قال : إني لأتلو الآية، فأقيم فيها أربعَ ليال أو خمس ليال ولولا أنّي أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها"[٢].

أيكون هذا مع ضيق الرُّؤية القلبيّة لما في السّورة من معاني الهدى ؟

---

(١) إحياء علوم الدين تأليف أبي حامد الغزالي. نشر دار المعرفة : بيروت ج ١/ ٢٨٠.

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد .تأليف: أبي طالب المكيّ : محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ) تحقيق :عاصم إبراهيم الكيالي.نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان. ط(٢) عام: ١٤٢٦ هـج١/ ٩٢، و إحياء علوم القرآن .تأليف أبي حامد الغزالي.(ت: ٥٠٥هـ) تحقيق: سيد عمران. دار الحديث . القاهرة.ج:١/ ٣٧٠.

ألا ترَى قوله : " فأقيم فيها" إنّها كلمة جدّ عليّة، ثم قوله: " ولولا أنّي أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرِها." ذلك آية عملية واقعيةعلى اتساع الرؤية القلبية لمعاني الهدى في القرآن[١].

فإذا ما كانت الرُّؤية العقليّة للبيان لها مبتدأ ومنتهى وفقًا لما يغذوها من العلوم والمعارف المكتسبة، فإنَّ الرؤية القلبية لها مبتدأ لا منتهى لها، لما ما يغذوها فوق ذلك ممَّا لا يتناهى .

***　　***

وأصحاب هذه الرؤى القلبيّة قلَّما يشغلون بتقيد ما يستطعمونه من معاني الهدَى لانشغالهم باستعذاب ما يطعمون، فإن سعوا إلى تقييده لم يتأتَّ لهم ممَّا استعذبُوا إلا نزيرٌ، فإنَّ مِنه ما لا تطيقه العبارة، وقد كان الإمام الشافعي ﷺ يقول أحيانا : إنّ قلبي يتفهمها ولا يطيقها لساني .

وأهل العرفان بالقرآن يقولون :" إذا اتسعت الرّؤية ضَاقت العبارة" فمنهم من يسكت، ولا يحمل على نفسِه أثقال الإبانة، ومنهم من ينفّس عن نفسِه، فيبين بما لا تطيق عقول الآخرين تلقيه، والأوّل أحكمُ وأسلمُ، فإنّ ترك الإنباء بما لا تطيقه العقولُ

(١) يحسُن بطالب العلم بكتاب الله تعالى أن يمكث معتكفًا في تبصر ما جاء في الفصل السادس عشر: في ذكر معاملة العبد في التلاوة ووصف التالين" في كتاب " قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد .تأليف: أبي طالب المكيّ : محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ) تحقيق :عاصم إبراهيم الكيالي.نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان. ط(٢) عام: ١٤٢٦ هـ وكذلك كتاب"آداب تلاوة القرآن" من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي .الجزء الأول، ونحوهما من الأسفارالتي عنيت بهذا ففي ذلك ما ينفعك نفعًا لا يطاقُ خُسرانه

أرحم بها، وهو من سِياسة العلم وحكمته الّتي يحتاج إليها أهل العلم وطلبته بمقادر حاجتهم إلى العلم نفسِه.

روى البخاري في كتاب "العلم"من صَحيحِه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ" .

جمهرة أهل العلم على أنّ الوعاء الذي لم يبثه أبو هريرة ﷺ هو ما تعلق بالفتن التي ستكون في الأمة، فالإنباء بها قد لا يطاق، فيكون من تحديث النّاس بما تطيقه عقولهم، فيكون فتنة لهم.

هذه الحكمة في سياسة العلم ونشره هي ما يفتقر إليه غير قليلٍ ممن يتصدون للفتوى والدعوة ونشرالعلم على العامة في وسائل الإعلام، فترى غير قليلٍ هو الرَّغوب في تصيد الغرائبِ والشوارد والأوابد يقذف بها في أسماع العامة، فيوقع فيهم من الفتنة أضعاف ما يستحصده من متاعِ الشهرة التي لايكاد يطفوعلى سطحها إلاَّ الجيف.

إن الحديث في شأن العوامل المحققة للعبد اكتساب اتساع رؤيته القلبية معاني الهدى، والعوائق عن هذا الاكتساب جد عديدة لا يتسع لها الجهدُ، وقليلٌ يفضِي إلى كثير غير من بسطة ينسِي بعضها بعضًا، ولا سيما أن مثل هذا ـ غُنمًا ـ يُخاطب به من كانت لهم قدمٌ في طريقِ طلب العلم واستثماره، والله الهادي إلى سواء السبيل

وكتبه

محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ (غير المتفرغ) في جامعة الأزهر الشريف

فهرس الموضوعات